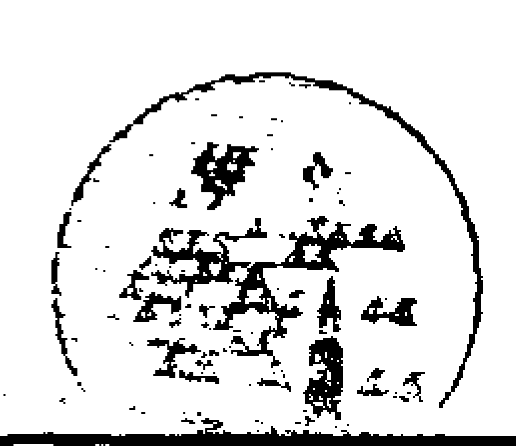
جمال بدران

الأدب السياسي



سلسلة ثقافية شهرية





[٥٨٦]



جمال بدران





دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشـاء هـذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العـربيـة . وأن ينتفعوا ، وأن تـدعـوهـم هذه القـراءة إلى الاستزادة من الثقـافة ، والطموح إلى حياة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقليـة التى نحيـاهـا .

طـه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ

[٢٠ العنكبوت]

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ

[١٨ سبأ]

مقدمة

ربما يكون الأدب السياحى جديدًا على أدبنا العربى ، إذ لم نسمع من قبل عن أديب تخصص فى هذا النوع من الكتابة .. سواء كان هذا الأديب شاعرًا أو قاصًا أو مؤلفًا مسرحيا فى العصرْ الحديث – مع أنه أدب شاعت فنونه فى الآداب غير العربية ، وتعددت وجوهه فى الرواية وفى القصيدة وفى الفنون التطبيقية الحديثة كالسينما والتليفزيون ، فضلا عن لوحات الفن التشكيلى .

فما الذى جعل أدبنا يخلو من السياحة والتجوال بين المدن البعيدة والمنتجعات ومراكز الآثار الشهيرة ؟

ربما يقول قائل : لقد احتوى تراثنا على أدب الرحلات ، ونرد عليه : بأن هذا الأدب يمثل جزءا من الأدب السياحى ، وعنصرًا من عناصره ، ذلك لأن رصد مسار الرحلة ، والتوقف عند نقاط أو مدن جذبت الانتباه ، أمره مختلف عن مضمون الأدب السياحى ، فالرحّالة تباينت أهدافهم من رحلاتهم حسب اهتماماتهم ، كالرغبة فى اكتشافات جغرافية ، أو الاطلاع على عادات وتقاليد شعوب مغايرة ، وما شأن هذا من أهداف . مما يستتبعه استخلاص نتائج أشبه بوجهات نظر أو قوانين .. مثلما فعل ابن خلدون من رحلاته فى

سائر بلدان العالم الإسلامى وتوصله إلى وضع أساس علم واقعات العمران .

وقد يقول قائل : إن أدب الوصف كاد أن يطغى على سائر وجوه الأدب العربى شعرًا كان أم نثرًا .. فما الذى يفرّق بينها وبين الأدب السياحى المزعوم ؟ !! ونقول له : إن الأدب السياحى أشمل وأرحب من أن يقتصر على الوصف ، لأنه لا يستهدف من وصف شىء أن يستثير خيالك فحسب ، بل أيضا ليقرّب الواقع البعيد عنك إليك ، ويستحثّك على التحرك إليه ، ومن ثم فإن الوصف فى هذا النوع من الأدب العالمى ليس استقراريا بقدر ما يزيد عليه حوافز الجذب والرغبة فى التشوّف . لذلك فإن قدرة أدباء هذا النوع تتركز فى مدى شدّ قرائهم إلى حيث ساروا وشاهدوا .

وقد يتسرع قائل بالقول إن الأدب السياحى إذن يجمع بين [الرحلات والوصف]، ونقول له مهلا ، فالأدب السياحى يستند أيضا إلى مضامين شعبية لا تكون متوفرة الوضوح فى مجتمعات أخرى ، ولا تكون نسخة مطابقة لأخرى فى هذه المجتمعات ، مما يجعل الأمر شديد الإلحاح على قراء هذا الأدب أن يحملوه معهم كوثيقة ، ويسترشدوا بها بعدما تحوّلوا إلى سيّاح قارئين .

بهذه العناصر وغيرها ، وجدنا أدب السياحة يجوب العالم مرشدًا ومُحركا .. ولابدّ أن يصل إلينا ، بحكم وجود بلادنا فى قلب العالم ،

وبحكم احتواء بلادنا على القدر الأعظم من آثار أقدم حضارة ، وبحكم ضرورة الاحتكاك بين حضارات القادمين وحضارة القائمين ، وبحكم ثورة وسائل الاتصال العالمية التى ضيّقت من رقعة العالم الواسع ، وشدّت جهات الدنيا الأصلية والفرعية إلى مصر أم الدنيا .

كذلك قد يهمس هامس ، مستخفّا بالأدب السياحى ، فيتبعه معلّقا إنه دعاية ولا يمتّ للأدب بصلة .. والهامس من هؤلاء .. إمّا أن يكون على غير إلمام بفنون الدعاية وألوانها ، وإما أن تكون سطحية نظرته السريعة لم تتح له فرصة التعمق فى نماذج من هذا الأدب . نعم يشتمل الأدب السياحى على قدر من الدعاية ، ولكن أية دعاية ؟ دعاية صادقة ، دعاية بيضاء على حد تعبير خبراء الدعاية .. معروفة المصدر ، معروفة الهدف . وأدب يفتح صفحاته للترحيب والترغيب ، ويطلق الأقدام إلى كل موطئ ممهّد أليف كان أم غريب .

لم يبق بعدئذ إلا الإصغاء لتساؤل مخلص هو : هل خلت كل هذه المراكز الجاذبة للسياحة من متناقضات الجذب ، أو ما يشين الجانب المشرق من الإغراء السياحى ؟ والمرة الثانية يمكن تذكّر أن هذا الأدب السياحى أدب صادق ، فلا يخفى أو يدارى العيوب ، ذلك لأن ما من مجتمع فى العالم إلاّ ويجمع بين الجانبين المتناقضين ، وما على الأدب السياحى إلاّ أن يقدم الأحياء القديمة فى ثوبها التراثى والأسطورى ، حتى يمكن أن يفيض العائد من الدخل السياحى

للإنفاق على رفع مستوى هذه الأحياء بالحفاظ على أجوائها القديمة في قوالب غير مشينة .

يبقى بعدئذ شيء صار غاية في الأهمية ، وفي هذه الآونة ، ألا وهو .. المطبوعات الدعائية والإرشادية .. فكم من المرات تزور أثرًا من الآثار المصرية ، أو حتى لو دخلت متحفا من متاحفنا العامرة بكنوزها ، وكذلك الأمر في مراكز السياحة الحديثة . لتنعم بأيام شاهدت خلالها أعظم الآثار قاطبة ، وأروع المناظر الخلاّبة ، وتتمنى لأن تستبقي هذا النعيم أطول قدر في الذاكرة أو المخيّلة ، ولا وسيلة لهذه الإطالة غير الصور الفوتوغرافية الفنية بزوايا التقاطها ، ونماذج ألوانها . نعم ستحصل على مثل هذه الصور المتفردة ، لكن غالبيتها الناجحة قد طبعت بالخارج . لكن الصور وحدها لا تكفي ، فالسائح بعد عودته إلى بلده ، يعيش لحظات استرجاع مشاهدة ، وما تلبث أن تلي لحظة استمتاعه ، لحظة التزوّد بالمعلومات المحيطة بالمعْلم السياحي ، هنا تكون قمة الإشباع السياحي ، لن تعثر على مثل هذه الكتيّبات المصوّرة ذات المستوى الراقي طباعيا في العالم إلاّ ما تم عمله في بلاد أوروبية أو يابانية !! .

ولا عجب من اهتمام مثل هذه الأقطار بآثارنا ومعالمنا السياحية ، لأنها في احتياج لتزويد مواطنيها بها ، وتدرك مدى احترام السائحين لما يقصدونه بأسفارهم وتقديرهم لها .

لكن الأعجب أن توجد لدينا مطابع صارت مستحدثة بآلاتها وأجهزتها على مستوى عالمى ، ولا تدخل هذا المضمار الخدمى لسلعة السياحة ، ولا نرضى هنا بحدّ التواضع فى إصدار مثل هذه النشرات ، بل لابدّ أن ترتقى إلى الدرجة التى تماثل رقىّ معالمنا السياحية العملاقة ، وتنافس مثيلاتها الطباعية فى الإتقان والجودة العالمية .. ليس هذا بمستحيل ، لأنه لا يتطلب إلاّ صدق العزم فى فهم رسالة هذا النوع من المطبوعات وقيمته .

وبعد .. فهذه محاولة ، على حد علمى – غير مسبوقة ، لوضع معالم أدب سياحى مصرى وعربى ، يفتح الباب على مصراعيه لإبداعات فى هذا المجال ..

وفقنا الله لما فيه الخير والرقىّ ببلدنا مصر المحروسة .

وعليه سبحانه وتعالى قصد السبيل .

جمال بدران

الفرق بين الأدب السياحى
وأدب الرحلات

من نصدّق ؟ هيرودوت أم الشعب المصرى !!

شاعت فى السنوات الأخيرة لفظة (الأدب السياحى) حتى أوحت إلى القراء بأنها مصطلح للتعبير عن مجال جديد أو فتح فى دهاليز الأدب .

إن صفة « السياحى » حين نخلعها على « الأدب » تصبغه بالتجوال والتحليق فى عوالم وآفاق بعيدة عن العين والأذن ، إلى الحدّ الذى تقرّبه من أدب الرحلات المعروف .. بما فيه من تقريب البعيد ، وتقديم مشاهد لأماكن نائية ، وشعوب متأخرة أو راقية ، ونماذج من الحياة غريبة عنا أو شبيهة لنا ، وأنواع من الكائنات والهوام عاشت أو لازالت تعيش فى جنبات الأرض أو محميات بأعماق البحار – لكن الأدب السياحى يظل يطرق أسماعنا الآن ، كأنه يلحّ علينا بأنه شيء مخالف لما عهدناه فى أدب الرحلات .

وهنا يحقّ لنا أن نطالب أرباب الأدب السياحى بأن يأتوا ببراهينهم .. فيقولون .. إنه وصف لما يقع فى نطاق حواس الإنسان من مرئيات

وسمعيات ، بل الروائح والنسمات ، وما إلى ذلك من دقائق الحسّ ومشهيات التذوق . ويزيدون القول تأكيدًا .. إنه وصف مباشر ، قائم بذاته ، يستقل عن البناء الروائى أو الشعر الوصفى . ويتميّز بالتأنق فى صوغ العبارات ، مستهدفا تجميل الموصوف وتحسينه لراغبى السفر أو الباحثين عن الاستمتاع .

كما أن الغرض يبدو منه واضحًا منذ البداية ، فلا لفّ فيه ولا دوران أو استطراد ، ولا محاولة للخداع أو الإيهام . وإنما هو أقرب إلى المعلومات الموثقة بالوقائع والصور الجميلة ، ومقاطع من أغانى سائدة أو أشعار رقيقة ، كُتبت كلها بلغة بسيطة رشيقة ، يزيد الموصوف تجمّلا ، ليزيد شوق القارئ إلى الحركة والانتقال إلى موضع هذا الموصوف الفسيح .

معنى هذا أن الأدب السياحى لا يقنع منك بقراءته ، وإنما هو دعوة للتحرك والذهاب إلى هناك ، لتشارك صاحب الدعوة الاستمتاع بما عايشه من نعيم ، لا لتستوثق من حقيقة ما وصفه لك كاتبه .. لأن المفروض فيه الثقة والصدق .. ولأن سلعة السياحة فى هذه الحال خالية تماما من الغش . وهذا هو الذى يمثل نقطة الالتقاء بين الأديبين . (السائح والرحّالة) .

فأديب الرحلات لا يطلب منك ذلك التحرك ، ولا يوحى لك أو يلحّ عليك بضرورة الارتحال إلى ما سبقك إليه ، وإنما هو ينقل إليك

مشاهداته فى بلاد التبت أو واق الواق ، حتى إذا ما استعان بصورة أو عدة صور لهذه البلاد ، جعل من نفسه مركزًا أو محورًا لها ، ولكن لا يفرض عليك ذوقه ، بل يعرض عليك انطباعاته عنها ، فهو البطل الحقيقى لهذا العمل الأدبى . وهو المغامر الذى خاض الأهوال وركب الجبال فى هذه الرحلة ..

هو مثل هيرودوت أول رحالة فى التاريخ ، حين ينزل إلى وادى مصر ويرى النيل .. فيطلق شعاره الشهير .. مصر هبة النيل ، وسواء أكان مخطئا أم مصيبًا ، إلاّ أنه صار شعارًا عليه بصمة صاحبه هيرودوت .

وهو مثل ابن بطوطة أيضًا ، الممارس العملى للإقامة فى بلدان لم يكن يعلمها ، ويعايش أهلها ، ويتزوج من نسائهم ، ويسجّل مشاهداته بعدسة عينيه ، ويصبح علما على خط سير الرحلة الطويلة .. فيصبح عمله الأدبى منسوبًا لابن بطوطة وحده دون غيره .

بل هو مثل كولومبس في مغامراته الكشفية ، وعثوره على أراض جديدة ، وسواء أسماها خطأ أم صوابا جزر الهند الغربية .. فقد صار فتحه الكشفى فى الدنيا الجديدة منسوبًا إليه قبل كلمة الدنيا الجديدة نفسها .

أما كاتب الأدب السياحى : فالمكان بمحتوياته هو البطل ، والناس الذين يعيشون فوقه هم الأبطال .. هذا إن كان لابدّ من وجود بطل

فى كل أعمال الأدب ، فهو إمّا أن يكون كاتبًا محترفًا ، يستعان بقلمه ذى الأسلوب الرشيق فى التشويق ، وحفز الهمم لدى القادرين على الذهاب وراء آثار الماضى ، وجذب القادرين على القفز إلى مواطئ المتعة ومواطن الهدوء والعزلة . وإمّا أن يكون الكاتب صحفيا متخصصًا فى صفحات السياحة ، إذ يستعان بقلمه فى رحلات افتتاح خطوط طيران أو خطوط ملاحة بحرية ، يصل منها إلى بقاع جديدة ، ويصف خلالها راحة وسيلة الوصول ، كما يصف كل ماسَرّ من رؤيته فى هذه البقاع ، وكلا الأديبين : أديب الرحلات - وكاتب الأدب السياحى ، كلاهما يكتب بصدق كل ما ارتاحت نفسه إليه ، لكنه لا يكتب عمّا أغمض عينه عنه ، فتكون كتابة هذا الأدب السياحى .. كتابة الرضا الدائم عن هذه الجنان المتناثرة على سطح الأرض ، فالأدب السياحى يوجه أغلب اهتمامه الزمنى بالحاضر والمستقبل دون الماضى ، ويركز على بلد أو مدينة دون ان يعمّم القول على أخرى مشابهة بعدت أم قربت . حتى فى تناول الآثار وتاريخها الواقعين فى إطار وصفه ، فإنه يتناولهما من زاوية الحاضر ، وما يتوقع لهما من مستقبل سياحى .

أى أن نظرة كاتب هذا النوع الجديد من الأدب الوصفى، هى نظرة حالية ومستقبلية ومجددة ، ولا أقول نظرة تقريرية.. ذلك لأن عينًا له تقع على حاضر ما يشاهده، وعينه الأخرى على المتلقين لكلماته، ذوى الصفة الواحدة العاطفة مع السياحة، والتى تكون رهن إشارته للتحرك.

والأديان – الرحّالة الوصّاف والسياحى – يتساويان فى الانطلاق إلى المستقبل دائمًا ، على اعتبار أن استكشاف المجهول أو معرفة الغامض والجديد هو العامل المشترك بين المستقبلين .

لكنَّ سائلا يسأل : أليس فى أسلوب المباشرة الذى يغلب على الأدب السياحى ما يضعف من قدر الاستمتاع الأدبى بموضوع الوصف ؟ بل يكاد أن ينزع صفة الأدب من هذا النوع من الكتابة ؟

ثم يدعم السائل اعتراضه بالقول : إننا بالإمكان أن نعايش عملا روائيا بما فيه من مسرح أحداث وشخوص ، نتفاعل معه ونبتهج به ، فندرك أبعاده وأوصافه ، ونكاد نخطو مع الأبطال فوق ترابه وأمواجه ، فنبلغ قمة السعادة بهذا العمل الروائى المتكامل ، الخالى من المباشرة والاصطناع ، ومن ثم يتحقق الهدف من الأدب ، فتحوطنا الرواية بنسيجها ، ونحتضن عناصرها ، من هذه العناصر : أماكن مجرى الأحداث، شخوصها من رجال ونساء وأطفال.. إنها أماكن نبضت بالحياة، وهذا فى حدّ ذاته يمثل نجاحا للأديب الروائى صاحب هذا العمل .

روايات ملء السمع والبصر

ونحن حين نقرأ – على سبيل المثال – رواية دون ليخوته لثربانتس ، التى ترجمها عن الأسبانية الدكتور عبد الرحمن بدوى – نتمثل طواحين الهواء والبطل يحاربها بسيفه . لقد وصف المؤلف أكثر من موضع ، وكان منها ماجرى فيه حديث بين بطلى الرواية دون كيخوته وسنشو.. فقال:

« وهما فى هذا الحديث إذ بلغا قاعدة جبل شاهق ، يبدو كصخرة عمودية الانحدار ، ويقوم وحده بين جبال عديدة تحيط به ، وعلى سفحه يجرى جدول رقراق حواليه مروج خضر رطيبة تسرّ العيون، وزاد من بهاء المنظر أشجار متناثرة هنا وهناك وأزهار بريّة، هذا المكان اختاره الفارس الحزين الطلعة ليعتزل فيه، فما عتم أن رآه حتى صاح بصوت عال كالمجنون »[1] .

إن ريشة الفنان ثربانتس ترسم منظرًا طبيعيا يغرى البطل بالبقاء فيه بعيدًا عن الناس .. لينعم بالهدوء والأمان .. لا يضع القراء فى اعتباره

(١) رواية دون كيخوتة لثربانتس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى

مطلقا ، فعمله الروائى وبناؤه هما همّه الأول والأخير ، أمّا نحن القراء فإعجابنا يأتى بالتبعية ، حتى إذا لم يكتسب إعجابنا ، فيكفيه استقامة بنائه الروائى مع جزئيات بطل عمله الذى استهدف بقاءه مقيما فى هذا المكان الهادئ الأمين ببعده عن الناس .

وكذلك فى رواية سومرست موم - حدّ الموسى - التى تدور أحداثها بين الولايات وفرنسا والهند ، فتكاد أن تعلو نغمة الأدب السياحى - الذى يتخذ من مميزات كل بلد لحنا - على سائر غنائيات هذه الرواية الأدبية ، ومع ذلك فإن المؤلف لم يركز على بلد دون غيره ، وإنما انطلق إلى رحاب أوطان ثلاثة .. استمع أبى الكاتب وهو يقول : « حسن ، لقد وصلنا إلى بمباى ، وكانت السفينة سترسو لمدة ثلاثة أيام لتتيح للسائحين فرصة مشاهدة هذه المناظر والقيام بنزهات ، وفى اليوم الثالث لم يكن لدى ما يشغلنى عصر ذلك اليوم ، فنزلت إلى الشاطئ ، ومشيت بعض الوقت وأنا أنظر إلى الجمهور والزحام ، والثيران ذات السّنامات والقرون الطويلة التى تجرّ العربات ، ثم ذهبت إلى الفنتا لمشاهدة الكهوف والتمثال العملاق ذى الرءوس الثلاثة »[1] .

فنرى المؤلف يزيد على هذا المشهد السياحى الأدبى .. ميزة سبق لها النشاط السياحى الحالى فى مجال هام من مجالاته .. مجال السياحة العلاجية .. فيذكر علاج الأرق باليوجا ، وكأنه يحفّز كلّ من يعانى

---

(١) حدّ الموسى لسومرست موم .

من الأرق أن يتوجه إلى الهند ليتعلم اليوجا فيها ، أوْ ما نسمّيه بالاستشفاء السياحى ، الذى يريد لنا أن نتجرّعه .

كذلك نجد عملا آخر رئيسًا للكاتب الدنمركى كارل بيارنهوف هو « وشحبت النجوم » .. فالكاتب يطوى بين جنبيه مشاعر فنان موسيقى رقيق ، إذْ يعزف على سطور روايته ألحانا عاشقة لذكرياته فيها . إنه يحكى عن بصره المهدد بالعمى . لم يعد يسمع غير صفير الريح وتكسّرات الجليد ، ودوائر ذهبية حول المصابيح فى الطرقات السوداء ، وها هو بعد أن ارتدّ إليه بصره والشمس مائلة فى مواجهته يقول واصفا :

« والغابات فى الجنوب ، والغابات فى الشمال، بدا لونها بُنّيًا شاحبًا بقشور البراعم التى قد تنشقّ غدًا أو بعد غد، وفى مدى أسبوع ستكون كل شجرة قد اخضرّت ، وها هو ذهب شمس الأصيل على الماء من أمامنا ، وها هو ذهب شمس الأصيل على الغابات ذات اللون البنى ببراعمها البازغة، وها هى الشواطىء لم تزل قريبة حتى إننى كنت مستطيعًا -بين الفينة والفينة- أن أرى البيوت، وها هى غابات جديدة وطيور النورس وطيور خطاف البحر البيضاء تتبعنا فى مسيرنا»(١) .

---

(١) وشحبت النجوم لكارل بيارنهوف.

هذا الكاتب الدنمركى ابن الطبيعة القاتمة فى أغلب العام ، والتى يغلب عليها الهدوء والصمت ، يستخدم الصوت فيضفى على المكان قدرًا من الحياة ، إذْ فضلا عن استخدامه جُملا متوازنة ، ذات إيقاعات شعرية ، فهو يعزف على صفير الريح وتكسّرات الجليد ، ألحانا طبيعية ، نرهف السمع إليه ونحن نقرأه .. وهذا نوع من المقدرة الأدبية قد يفتقدها كاتب الأدب السياحى المحترف الذى يحتاج إلى الموسيقى لاستكمال الخدمة السياحية .

وللكاتب الأمريكى أيضا - جون شتاينبك - لمحات تدخل فى عداد الأدب السياحى ، من خلال روايته الرائعة « شتاء السخط » ، فبيت جده العتيق وأبيه ، بعد أن يصفه لنا .. « بيت ذو طلاء أبيض وأركان متوازنة وطاقة مروحية تعلو بابه الأمامى ، ورسوم معمارية من طراز آدم ، وممرّ ضيق يسير بحذاء أسقفه وسط حديقة ريّانة ، بين أشجار الليالق ذات المائة عام وسُمْك سيقانها خاصرة رجُل .. » .

بعد استرسال شتاينبك فى الوصف الدقيق ، يتساءل فى ذكاء أدبى لمّاح ، إذ يأتى السيّاح فى الصيف ليروا فن العمارة وما يسمّونه « سحر العالم القديم » الذى فى بلدتنا ، فيتساءل « لماذا ينبغى أن يكون السحر فى العالم القديم ؟ » .

إن أبّهة المناظر أو عظمة الآثار ليست دائما هى التى تجذب

أنظار الناس على وجه العموم ، وأنظار الأدباء خاصة ، بل قد تشدّهم - أحيانا - مظاهر التواضع والمسْكنة ولا أقول البؤس ، لا لشيء إلاّ لوجود قيمة من القيم الأصيلة .. ترجّح كفة هذا النقص الأثرى أو هذه الأبهة المنشودة .. مثلما وجدناه لدى الكاتب الإنجليزى الشهير توماس هاردى ، حين استعاض عن ذلك النقص بقيمة دينية سائدة بين أهل لندن كلهم . إنه يقدّم جود المغمور ، وهو يحفر حفرة صغيرة وضع فيها كل ما ملكه من كتب دينية ومراجع ومؤلفات تبحث فى علم الأخلاق ، يزمع إحراقها فى لحظة يأس ، لكنه يبرز لنا حقيقة دينية غالية .. فيقول :

« وكان يعرف » أنه فى بلاد المؤمنين الصادقين هذه، لا يباع الجانب الأكبر من تلك المراجع بثمن يزيد كثيرًا على ثمن المهمل من الأوراق[1] .

بل يتجسد هذا الشعور الجارف فى تعليقات البسطاء ، وهم يرونه من وراء السور .. « إنك تحرق مخلفات قريبتك المتوفاة !! »[2] .

هنا نصل إلى نوع آخر من الأدب الروائى السياحى ، أقصد ما يعرفه خبراء السياحة بالسياحة الدينية ، فنجد الكثير من الأعمال الأدبية الشامخة تضم بين سطورها ملامح من هذه السياحة فى المعابد الإغريقية

---

(١) توماس هاردى فى روايته .

(٢) توماس هاردى فى روايته .

والرومانية والهندية ، ثم نجد سماتها أيضًا فى التكايا العثمانية والأديرة . اسمع أحمد نور الدين بطل رواية « الدرويش والموت » للأديب اليوغوسلافى ميشا سليموفتش ، اسمعه يصف تكية من واقع ذكرياته : « هذه التكية جميلة وواسعة ، وتقع على شاطئ جدول ينساب بين صخر الجبال ، كما تحيط بها حديقة ذات أزهار وكروم تتسلق فوق الشرفة ، ولها ردهة طويلة يسودها هدوء يزيد من إحساسنا به سماع رقرقة المياه التى تجرى بقربها »[1] .

ثم ينساق بنا فى ذكرياته بقوله :

« وقد كانت فى الماضى حريما للأجداد ، ثم أهداها إلى الطريقة المولوية رجل موسر يدعى على جافيتش لتكون مجمعا للدراويش ، وملجأ للفقراء ذوى القلوب المنكّسة ، وقد طهرناها بالدعوات والبخور مما كان بها من آثام وشرور .. وارتدت بذلك ثوب الشرف الذى ترتديه الأماكن المقدسة .. إلخ »[2] .

ثم يزيد المؤلف ذلك المكان بهاء وتشويقا ، فيحيطه بأشباح غامضة لشابّات يطفن حوله منذ ما قبل التطهّر والتقديس للمكان .. قائلا :

---

(١) الدرويش (رواية) للأديب اليوغسلافى ميشاسليموفتش .
(٢) الدرويش (رواية) للأديب اليوغسلافى ميشاسليموفتش .

« حتى أن رائحة الشابات تصل إلى أنوفنا »[1] . نلمس هنا مدى المقدرة الأدبية التى غلّفت مكانا كهذا بأجواء يختلط فيها عبق البخور والشعور الدينى بذكريات ما قبل هذا الشعور ورائحة الشابات الحسناوات .

وكأن المؤلف يوجّه لى ولك ولغيْرنا دعوة خفية إلى زيارة هذه التكية الصامدة فى يوغوسلافيا ، لكن شيئا فاته هو أن التكية ليست مكانا ذا صبغة دينية إلا فى عُرف بعض الأتراك القدامى ، أو فى عُرْفه هو .

ونعود بعدئذ إلى السؤال الذى يطرحه صاحبه ، الأسلوب المباشر الغالب على الأدب السياحى .. هل يضعف من تأثيره فى المتلقى ، أو بالأحرى لا يحركه للانتقال إلى الأماكن الموصوفة جيدًا ؟ .

ربما يكون الأسلوب غير المباشر الذى رأينا نماذج منه فى هذه الأعمال الروائية الردّ الكافى لوجود هذا التفاوت بين التأثيرين ، فالأدب – كما عرفنا – لا ينحو إلى المباشرة بقدر ما يفضل الصياغة الفنية الخالية من التصنّع أو المصارحة فى غير موضعها ، لذلك فنكاد نقول إلى المعين للأدب السياحى هو الأعمال الأدبية التى تتضمن مثل هذه العناصر السياحية .. وذلك مع افتراض أن عنصر المباشرة فى

---

(١) الدرويش (رواية) للأديب اليوغسلافى ميشاسليموفتش .

الأدب السياحى يعنى الصدق وتوافر الثقة بين قارئه وبين سطوره الحقيقية .

ومع ذلك فالحق لابدّ أن يقال .. إن الوصف فى الأدب من أهم العناصر السياحية التى لا يمكن الاستغناء عنها ، فنحن عندما نستمع إلى أبيات للشاعر عمر أبى ريشة يصف طللا رومانيا مرّ به .. حيث يقول :

رمالٌ وأنقاض صرح هوتْ	أعـاليه تبحـث عـن أسِّه
أأستنطق الصخر عن ناحتيه	وأستنهض الميْت من رمْسِه
حوافر خيل الزمـان المشتّ	تـكاد تحدث عن بؤسـه
وتلك العنـاكب مذعـورة	تريـد التغلّب مـن حبسـه

حينما نستمع إلى هذا الوصف فى القصيدة كاملة ، تبدو لنا إبداع الشاعر فى تجسيد ما رآه ، وفى ما يمزجه برؤاه من وراء الطلل الرومانى .. بالنبش فى التاريخ منقبا عن الشخوص الذين عايشوه فى الماضى ، فصاروا فى عداد الأشباح الهائمة حوله ، لكننا نلاحظ أيضًا أصول الصنعة الشعرية لديه كشاعر يستخدم كلمات مصوِّرة ، فتحيل الحقائق التاريخية إلى صور مثيرة ، تؤثر بها فى عواطفنا ومشاعرنا .

وعلى هذا النسق وجدنا أشعار شوقى وحافظ وعلى محمود طه ومحمد فتحى فى وصف النيل والأهرام وأبى الهول ، أوصافا تترك للخيال كل عنان ، لتطوّف بنا أنحاء العالم عامة والعربى خاصة .

أنواع الأدب السياحى

على ضوء هذه التقدمة السريعة ، يمكننا تصنيف النشاط السياحى القابل للتناول الأدبى إلى عدة أنواع :

تقليدى : وهو أقدمها ، يستهدف مشاهدة الآثار على وجه العموم ، أو آثار حقبة محددة من التاريخ خاصة ، كالآثار الفرعونية والإغريقية والرومانية ، أو الإسلامية بفروعها الفاطمية والأيوبية والطولونية والمملوكية والعثمانية ، وكذلك الأمر فى سائر البلاد العربية تبعا لما مرّ بها من حضارات سابقة على الإسلام .

ونوع آخر من النشاط السياحى يستهدف مخالطة شعوب العالم عامة ، والشباب منهم خاصة ، والاطلاع على عاداتهم وتقاليدهم فى جدّهم ولهوهم ، والمقارنة بين المتشابه منهم بالاقتباس أو الاستهجان .

ونوع ثالث يستهدف التنعم بالمعالم الدينية والتبرك بها ، إذ يزور الساعون إلى المعابد ومراكز القيادات الدينية فى القدس أو الفاتيكان ، مع استدراك أساسى هو أن الوازع الدينى هو الذى يدفع إلى اختيار أماكن المشاهدة الاندماجية طواعية ، وهذا بالطبع غير فرض الحج

الذى يؤديه المستطيعون من المسلمين .. أمّا ما زاد على أداء الفرض – فيودّ بعض الحجاج زيارة المساجد التى لها ذكريات تاريخية مجيدة مثل مسجد قباء أو المسجد ذى القبلتين أو مسجد الفتح أو مسجد الغمامة أو مساجد على بن أبى طالب وأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وبلال .. رضى الله عنهم جميعًا ، أو زيارة البقيع الذى دفن فيه أكثر من عشرة آلاف صحابى رضى الله عنهم ، أو قبور شهداء أحد خارج المدينة المنورة التى من بينها قبر سيدنا حمزة رضى الله عنه ، أو جبل أحد نفسه على مبعدة أربعة كيلو مترات من المدينة ، أو المساجد السبعة مكان غزوة الخندق .. هذه كلها معالم أثرية تهفو النفس الحاجّة إلى زيارتها ، لإمتاع العين برؤية مشاهد وشواهد وثيقة الصلة بالسيرة النبوية العطرة ، وبأمجاد صدر الرسالة المحمدية . ومن ثم تدخل فى عداد السياحة الدينية .

ونوع رابع من السياحة يستهدف الاستشفاء والنقاهة فى مواضع صحية .. كعيون المياه المعدنية أو الرمال الساخنة لمرضى الروماتيزم ، أو الأجواء الجافة المساعدة على الشفاء من أمراض الصدر ، وما إلى ذلك من مواضع حباها الله ميزات تجذب إليها الباحثين عن سلامة الصحة ، وهدوء الأعصاب يزكّيها بحمل اسم منتجع ومنتجعات .

كما يوجد **نوع خامس** للنشاط السياحى قائم على ما فى داخل المدينة أو البلد وخارجه ، فيستهدف الداخلى منه تشجيع المواطنين

على زيارة كل ما فى البلد من مميزات الأنواع الأربعة السابقة ، من منطلق أن أهل البلد أولى وأسبق من غيرهم برؤيتها والاستمتاع بها ، أما الخارجى منها فهو للبحث عمّا ليس فى الداخلى من ميزات مرغوبة .

من كل هذا نرى تسابق الدول فى إبراز أجمل ما فيها من معالم ، وأحسن ما لديها من مميزات تنفرد بها ، فاستغلّت تقدم وسائل الاتصال وفنون التصوير والسينما والتليفزيون ، وتنافست فى عمل شرائط وشرائح لأجمل مناظر الدنيا . لكن هل أغنت كلها عن المشاهدة العينية أو خففت منها ؟ .

لقد كان من المتصوّر أن تؤثر هذه المستحدثات تأثيرًا عكسيا على النشاط السياحى ، لكنه على غير المتوقع ساعدت على ذلك النشاط فزاد زيادة طردية معها ، وربما كان لتقدم الملاحة الجوية والبحرية أثره الفعّال فى ذلك ، وكذلك زيادة سرعة القطارات وتزويدها بكل وسائل الراحة والترفيه .

هذا فضلا عن الصور واللوحات والشرائط والشرائح الملونة ، كانت من عوامل التشويق والجذب للمشاهدة ، وتيسير مشكلات الاختلافات اللغوية بين السياح .

كذلك تنافست الحكومات ورجال الأعمال فى إقامة المشروعات الفندقية ، والقرى والمنتجعات الترفيهية حول أماكن الجذب

السياحى ، وارتقى كل منها بالخدمات الفندقية والإرشادات السياحية – بالصوت والضوء – فى توفير كثير من الوقت والجهد على السائح ، كما دخل عالم الخدمات السياحية والفندقية مستويات جديدة من الشباب المثقف المجيد للغات الأجنبية ، لتنقية مهام الإرشاد من خرافات الجهّال ، وأساطير استحدثت على ألسن المجتهدين ..

فأطال كل هذا وذاك من أيام وليالى الاستمتاع والترويح السياحيين . كما أن أنواعا جديدة من المستشفيات نشأت باسم المستشفيات الفندقية ، حول أماكن الاستشفاء ، أو فى البلاد المشهورة بالمناخ الصحى المناسب للباحثين عن العلاجات الطبيعية .. فتجمع هذه المستشفيات بين العناية الصحية وبين الخدمات التمريضية .. بالقرب من أماكن الجذب السياحى العلاجى .

نخلص من هذا إلى اتساع رقعة السياحة حتى شملت كل أنحاء العالم ، وهى بالتالى تتنوع وتتعدد وجهاتها تبعًا لاختلاف وتتالى الفصول والأجواء . فنجد السياحة الشتوية والأخرى الصيفية ، كما نجد سياحة الجبال وسياحة السواحل ، بل هناك سياحة الصحارى وسياحة المروج الخضراء .. وللناس فيما يعشقون مذاهب ..

ولمّا كانت طبيعة الإنسان المعاصر ، فى حياة سريعة الإيقاع .. أن يكون أيضًا سريع الملل ، كثير التنقل ، صار من المستهدف كسر حدّة الملل ، وتجديد حيوية النفوس والأجساد .. وذلك بتنويع مصادر

الجذب السياحي ، والربط بينها بشبكة من المواصلات السريعة السهلة في طرق ممهدة آمنة .

لذلك تأسست شركات سياحية ، تدبّر الطائرات والسيارات ، وتستأجر البواخر والقطارات ، وتصاحب أفواج السائحين بالساهرين على راحتهم فيها ، وتمدّ كلاً من هذه الأفواج بما يتفق وأمزجة أعضائها من تسلية أو ترفيه أو إرشاد .

رسالة السياحة وأدبها

فما دور الأدب السياحى فى كل هذه التفريعات المستحدثة ؟ أين الأدب السياحى مما نحن فيه الآن ؟ .

هل هو أدب خارجى دعائى ، يناشد قراءة المقيمين خارج الحدود لا داخلها ، لا لأنه غريب عن أهل الداخل ، ولكن لأنه ينشد اجتذاب أهل العالم إلى أهله .. ومن ثم يصبح من الممكن إطلاق اسم أدب الواجهة عليه ؟ !! ويكون مضمونه كامن فى الداخل ، وشكله الأدبى هو الذى يعرض على المارّة ؟ ! .

وهنا لابدّ أن نسمع لرأى آخر يقول « إن كلمتىْ سياحة وواجهة غريبتان على الأدب ، لأن فيهما إضعافا لرسالة الأدب ، فالأدب تثقيف قبل أن يكون إمتاعا وترفيها ، ولا يصح أن نجعل منه بُوقا دعائيا لسلعة نغرى الزبائن للفرجة عليها » .

ويكفى للرد على أصحاب هذا الاعتراض ، أن نقول إن الأدب مذاهب ومشارب ، ورسالته موجهة إلى قرائه وعشاقه عامة ، دون تفريق بين قارئ أدب للاستمتاع ، أو آخر للاستنفاع ، والأدب تثقيف

وإمتاع أيضًا وترفيه ، أمّا كون التثقيف يأتى قبل أو بعد الإمتاع والترفيه ، فهو أمر يتوقف على المتلقى ومشربه . ولو لم يكن الأدب وأربابه مسايرين لتطوّرات الأجيال واحتياجاتهم .. لاندثر مع أصحابه ، وصاروا ذكريات أو أطلالا يطلّ عليها الأجيال المعاصرة الذين صاروا يسمون سيّاحا .

ومن ثم فلا غضاضة من أن نقرن الأدب الحالى بفرع منه اسمه الأدب السياحى .. ولا مفرّ من التسليم بحقيقة واقعة .. هى تحليل الأدب السياحى إلى جذوره العريقة التى تتحدد فى أربعة .. أدب الوصف ، وأدب الرحلات ، وأدب المجالسة والمنادمة ، وأدب شعبى أيضًا ..

ونحن العرب ذوو باع طويل فى هذه الجذور الأربعة الأصيلة .. ها نحن ندخل معًا متحفنا الأدبى لنقرأ ونرى صفحات خلدت على مرّ الزمن .. ونصغى أيضًا لنسمع ابن رشيق القيروانى .. الناقد والأديب الأندلسى الذوّاقة يقول « إن الشعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف » .

ولا أكون مبالغًا إذا قلت إن باقى أبواب الشعر العربى من مديح وفخر وهجاء ورثاء ونسيب .. هى أيضًا مندرجة تحت باب الوصف .. لأنها كلها تصف مزايا الإنسان ونواقصه أيضًا ، تصف محاسنه خُلقا وخلقة ، ثم تصف الكائنات الحية والجامدة على السواء ،

تصف النار والماء والسماء على السواء ، بل تصف الخمر وما تفعله بالشاربين . وقديما قالوا .. وصف الثوب الجسم ، بمعنى أنه كشف عن دقائقه وتفاصيله ، فلم يستره ، أى أن الوصف معناه الكشف عن المخبوء ، واكتشاف المجهول .

فلا عجب إذا اهتم النقاد القدامى بالوصف كعنصر رئيسى فى الأدب العربى ، وأفردوا له كتبًا شتى ، كتشبيهات ابن أبى عون ، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، ونهاية الأرب للنويرى ، والمحبّ والمحبوب والمشموم والمشروب للسرىّ الرفّاء .

وأصبح بالإمكان أن نضع هذه الأوصاف بجانب بعضها البعض ، فنخلص إلى شريط مصوّر كامل لطبيعة أرض العرب البكر .. بجبالها ووديانها ، بصحاريها ومروجها ، بحيواناتها ونخيلها ، بأنهارها وجداولها ، بزهرها وثمارها ، ثم بقصورها وأطلالها ، ومجالسها اللاهية وميادين حروبها الدامية .. لا فى العصر الجاهلى فحسب ، بل فى شتى العصور الدارسة والباقية .. وهكذا تتكون لوحات موحية لكل مبدع ، وجاذبة لكل مشتاق .

ومن باب الوصف ندلف إلى أدب الرحلات العربية وروّادها .. والحقيقة المستقرة أن الإنسان ولد راحلا ، إمّا للبحث عن الرزق وإمّا للبحث عن المجهول ، وقد يُثنيه التعب حينًا ، وقد تعترضه المشاق حينًا آخر .. فيلجأ إلى خياله يشقّ به عالما غير محسوس ..

كما وجدنا ذلك فى الأساطير . لكنه ما يلبث أن يستعيد عزمه وقواه ، فيواصل السعى والارتحال مخترقا الحجب والسدود .. ويغامر مخاطرًا بحياته حينًا ، ويقتحم محاربًا يتخطى الحدود بعض الأحيان ، لكنه فى هذا وذاك لا يهدأ له بال إلاّ عندما يحقق مأربه ، فيشبع بطنه كما يشبع نهمه إلى المعرفة أيضا .

من هذا المنطلق جاء دور العرب ، حملوا مشاعل النور إلى الهند والصين وإلى بلاد الأندلس حتى جبال البرانس ، ومن جبال القوقاز إلى بلاد السودان ، كما حملوا ما استطاعوا الاتجار فيه بين شتى البلدان ، ولمّا استقرّت بهم الأمور .. توجّهوا إلى سائر الأصقاع ، يؤرخون ويستكشفون .. ويسجّلون ويرسمون المسالك كما يحددون الممالك .. فصارت الرحلات الجغرافية علما عليهم ، وصارت قصة السندباد البحرى الخيالية من مقتنياتهم الشامخة ، ولم يعد بعُد الشُقة صعبًا عليهم فى سبيل التأكد من معلومة شائعة ، مثلما وجدنا الخليفة العباسى الواثق بالله يأمر سلاّما الترجمان بالارتحال إلى الصين ، ليبحث عن سدّها العظيم ، الذى أشيع أن الإسكندر الأكبر هو الذى بناه سدّا بين العالم القديم ، وديار يأجوج ومأجوج .

وهكذا تتالت رحلات العرب ، وتعددت أغراضها ، وسار موازيًا لها أدب عربى يختص بالرحلات ، يتميّز بالذكاء والدّقة ، كما يتزوّد باللمحة والطرفة ، وما ذلك إلاّ للتخفيف من كل مشقة ، والمسامرة

فى الغربة ، فلو قرأت ما كتبه المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، لضحكت ملء رئتيك وهو يصف أهرام مصر حين يقول :

« فيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا من حجارة ، شبه هوْدجين ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع في عرض مثلها ، قد ملئت بكتابة يونانية !! ، وفي داخلهما طريقان إلى أعلاهما ، وطريق تحت الأرض ، وسمعت فيهما أشياء مختلفة ، فمنهم من قال هما طلسمان ، ومنهم من قال كانتا مخازن يوسف ، وقيل بل كانت قبورهم ، ويقال مكتوب عليهما : إنى بنيتهما ، فمن كان يدّعى قوة في مُلكه فليهدمهما ، فإن الهدم أيسر من البناء ، فأراد بعض الملوك هدمهما ، فإذا خراج مصر لا يقوم بهدمهما ، فتركهما وهما أملسان ، يُريان من مسيرة يومين وثلث ، لا يصعد فوقهما إلا كل شاطر ، وحولهما عدة صغار ، وهذا يدلّ على أنها مقابر » .

كما يضحكنا المقدسى حين يطلق أحكامًا عامة على أهل كل إقليم رحل إليه ، فيصف أهل العراق بأنهم أظرف الأقاليم ، وأهل فارس بأنهم أكيسهم قومًا وتجّارا وأكثرهم فسقًا ، وأهل الشام بأنهم أكثر بركات وصلاحٍ وزهدٍ ، أمّا أهل مصر فأكثرهم عبّاد وقراء وأموال ومتجر وخصائص وحبوب ولك أن تقارن بين وصفه لمكّة فى عصره ، وبين ما هى عليه من ضخامة واتساع بنايات فى عصرنا ، ففى وصف المقدسى لها بعد رحلته إليها قال :

« مكة هى مصر هذا الإقليم ، قد خُطّت حول الكعبة فى شعب واد ، بناؤها حجارة سود مُلْس وبيض أيضًا ، وعلْوها الآجر ، كثيرة الأجنحة من خشب الساج ، وهى طبقات مبيضة نظيفة ، حَارَّة فى الصيف إلا أن ليلها طيب ، قد رفع الله عنهم مئونة الدفء ، وأراحهم من كلف الاصطلاء ، وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسموّنه المسْفلة ، وما ارتفع عنه المعْلاة ، وعرضها سعة الوادى ، والمسجد فى ثلثى البلد إلى المسفلة ، والكعبة فى وسطه ، وفيه طول ، وباب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة ، عليه مصراعان ملبّسان بصفائح الفضة ، قد طليت بالذهب قبال المشرق ، طول المسجد ثلاثمائة ذراع ، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعًا ، وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعًا وشبرا فى ثلاثة وعشرين ذراعًا وشبرا » .

على هذا المنوال سار المقدسى فى وصف رحلاته إلى سائر البلدان ، وعلى هذا الدرب أيضًا سار بقية الرحالة من العرب ، فنجد ابن حوقل في المسالك والممالك ، والإدريسى فى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، والقزوينى فى كتابه آثار البلاد وأخبار العباد ، وفى وصف التاجر سليمان لرحلته البحرية إلى الهند والصين بالمحيطين الهندى والهادى ، كذلك فى كتاب « تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب » لأبى حامد الأندلسى الذى خاض المحيط الأطلسى وطاف بإفريقيا الشمالية وصقلية ، وزار مصر والشام والعراق ، كما دخل البحر الأسود وتوغّل

فى بلاد البلغار والصقالبة حتى وصل إلى المحيط المتجمد الشمالى ، ولدينا من الرحالة العرب أيضًا أسامة بن منقذ وعبد اللطيف البغدادى والبيرونى والهروى ، مع اختلاف وجهة كل منهم فى تسجيل ملحوظاته سواء كانت اجتماعية أم علمية أم فلسفية ، لكنها يجمعها كلها إطار الارتحال ، كما يظل عَلَما على الرحالة العرب ابن جبير وابن بطوطة وابن خلدون ، الذين اشتهرت رحلاتهم بالنظرات المتعمقة والأسلوب القصصى والإحاطة التامة بكل أركان ما زاروه من مراكز العمران (وأخرى بكْر خلت من أى أثر من آثاره) .

ومن هذا كله ومن غيره ، نرى أن العرب أصحاب حق فى نسبة السياحة إليهم بالوصف والارتحال ، خصوصًا أنهم تنبهوا إلى ما تجشموه من متاعب ، وما يبذله كل منهم من جهود خارقة ، وما يتعرضون له من مخاطر ، فلجئوا إلى التخفيف من وقع ذلك كله ، بتبادل الأحاديث الطريفة ، والتعليقات المسلّية على ما شاهدوه ، ولم يكتفوا بالقول ، وإنما سجّلوا ما قالوه دون تقيّد بأصول ، أو تحشمّ بحياء ، أو حتى استمساك بقواعد الإبداع شعرا كانت أم نثرا .

استمع إلى حوار حار بين المدن فى كتاب نفح الطيب أورده صاحبه على لسان أبى بحر صفوان يخاطب الأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن ، إذ يقول :

« ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار ، وطال بها الوقوف

على حُبك والاقتصار ، كلها يفصح قولاً ، ويقول أنا أحق وأوْلَى ، ويصيخ إلى إجابة دعوته ويصغى ، ويتلو إذا بُشّرَ بك ذلك ما كنا نبغى ، تنمرت حِمْصُ غيظًا ، وكاد تفيظ فيظا ، وقالت : ما لهم يزيدون وينقصون ويطمعون ويحرصون ، إنْ يتبّعون إلا الظن وإن هم إلا يَخْرصُون ، لى السهم الأسد ، والساعد الأشد ، والنهر الذى يتعاقب عليه الجزر والمدّ ، أنا مصر الأندلس ، والنيل نهرى ، فنظرتها قرطبة شزرا ، وقالت : لقد كثرت نزْرًا ، وبذرت فى الصخر الأصمّ بزرًا ، كلام العِدى ضرب من الهذيان ... ..

فقالت غرناطة : لى المعقل الذى يمتنع ساكنه من النجوم ، ولا تجْرى إلا تحته جيادُ الغيث السَجوم ، فلا يلحقنى من مُعاند ضررٌ ولا حيف ، ولا يهتدى إلى خيال طارق ولا طيف ، فقالت مالقة : تتركونى بينكم هَمَلاً ، ولا تعطونى فى سيدنا أملاً ، لدىّ من البهجة ما تستغنى به الحمام عن الهديل ، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشى إلى تعويض عنه ولا تبديل ، فما لى لا أعطى فى ناديكم كلامًا ، ولا أنشر فى جيش فخاركم أعلامًا ، فقالت مُرْسية : أمامى تتعاطون الفخر ، وتحضره الدرّ تنفقون الصخر ، إن عُدّت المفاخر ، فلى منها الأول والآخر ، أين أوْشا لكم من بحرى ، وجعجعتكم من نفثات سحرى !! فلى الروض النضير ، والمرأى الذى ماله من نظير ، فانقادوا لأمرى ، وحاذروا اصطلاء جمرى ، فأنا أوْلاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم ، وما يلقّاها إلا ذو حظّ عظيم .

فقالت بَلَنْسِية : فيم الجدال والقراع ، وعلام الاستهام والاقتراع ، إلامَ التعريض والتصريح ، وتحت الرغوة اللبن الصريح ، أنا أحوزه من دونكم ، فاحمدوا نارَىْ فلى المحاسن الشامخة الأعلام ، والجنات التى تُلقى إليها الآفاق يدَ الاستسلام ، وبرصافتى وجسرى أعارض مدينة السلام ، فأجمعوا على الانقياد لى والسلام .

فعند ذلك ارتمت جمرة تُدمير بالشَّرار ، واستدّت أسهمها لنمور الشرار ، وقالت عش رجَبًا ، ترَ عجبًا ..

هذا نوع من أدب الحواضر ، تفاخر كل منها الأخريات بمحاسنها ، وتبرز للأجيال فى حقيقة الأمر ما يغريها بالسفر إليها والتنعم فيها لكنها من ناحية أخرى تعبّر للمؤرخين مدى التنافس وحدّته التى بلغت حدّ التفكك طلبًا للصدارة والزعامة على سائر أهل هذه المدن ، لكنها على أية حال متعة أدبية تضاف إلى أدب الرحلات العربى لتزيد انتماء الأدب السياحى إلى العرب .

أدب الغربة والضيافة

وتتأصل هذه النسبة ، وتزداد تأكيدًا ، بما يملأ المجالس العربية من أنس وبهجة ، سواء كانت مجالس تسلية فى سفن الرحلات ، أو مجالس فى بلاد الغربة تكتنفها الدهشة والانبهار ، وتحوطها مشاعر الترحيب والتكريم بشتى مظاهر الضيافة والاسترضاء !

تحضرنى أبيات رقيقة للشاعرة المعاصرة وفاء وجدى بعنوان « ماذا تعنى الغربة » .

الناس حشود
لكنْ ما جدوى أن يحتشد الناس
والوجه يشيح عن الآخر
ويضيع الوجه عن الآخر
فى بحر الغربة
والجوّال يسير
فإذا ما جاع ازدرد الغربة .

والهوْلة ترقد خلف الباب

تلتهم الفرحة تلو الفرحة

تلقى بسؤال يهرب منه الأحباب :

ماذا تعنى الغربة ؟

ثم تجيب الشاعرة على سؤالها بنفسها قائلة :

« الغربة أن يفترق الأحباب وهم أحباب

ينتظرون ربيع الحب

يحلم كل حبيب بجنَى موسمه الخلاّب ..

لكن ما جدوى أن نعرف ما تعنيه الغربة

والغربة هنا مخيفة للأحباب ، لأن ألَمَ الفراق يظلّ حازًّا فى النفس ، طالما ظلّ الحبيب بعيدًا ، أو حتى ما دام لم يعثر على بديل يشغل ، أو سمير خفّف هذا الألم .. مع أن العرب تنبّهوا لهذا من قبل ، وهيئوا المجالس تستقبل كل غريب ، وأقاموا مهاجع على الطرق، يستروح فيها المسافر ، سواء كان الحب قد برّح به فارتحل ، أو كان التشوّق للمجهول متملكًا لهُ فسافر أوْ ساح مدفوعًا بالأمل .. لينزل ضيفًا مرحّبا به .

لهذا فقد تنبّه القرطبى لهذه الحقيقة .. فكتب فى مقدمة كتابه الجامع « بهجة المجالس وأنس المجالس » ليبيّن حكمة جمعه للأبيات والأمثال

والحكايات المستطرفة بقوله : « يحسن موقع ذلك فى الأسماع ، ويخفّ على النفس والطباع ، ويكون لقارئه أنسًا فى الخلاء ، كما هو زين له فى الملاء ، وصاحبًا فى الاغتراب ، كما هو حلى « بين الأصحاب » .

لذلك ظهرت لدى العرب مهنة النديم متنقلة من الفرس ، فتوسع العرب فى استخدامهم فى المجالس ، وصنّفوهم حسب تخصص كل منهم وموهبته ، فوجدنا النديم الحلو الحديث فيكون محدّثًا مسلّيًا لبقًا ، والجليس الواعظ الذى يطلبه الخليفة أو السلطان لنوع معيّن من المجالس ، والنديم الشاعر ، والآخر المغنّى ، وكذلك النديم الظريف المضحك .

كما ذهب هارون الرشيد شوطًا أبعد فى هذا المضمار ، فجعل الندماء موظفين فى قصره ، يقيمون بصفة دائمة ، ليكونوا تحت الطلب وقت عقد مجالس الأنس والطرب ، أو إقامة مجالس التحدث والأدب ، كل ذلك نظير رواتب ومنح وعطايا .

وهذا شبيه بما نراه من تطوّر فى عالم الخدمات الفندقية والسياحية فى النوادى وأماكن اللهو ، مع تعديل بسيط فى منصب السلطان الذى أصبح هو السائح نفسه الآن . وليتسابق الندماء المعاصرون فى استرضائه واكتساب ثقته ومحبته ، كل حسب اختصاصه وقدرته .

كذلك تميّزت كل فئة من فئات الندماء العرب ، بأزياء مختلفة ، بحيث يُنتقى لكل مناسبة ملبسها ، حتى يبدو النديم بالمظهر المقبول

والمريح لُمجالسه ، وبالطبع يتطلب المظهر الطيّب ضرورة التعطّر والتطيّب بالعطور المستحبّة ، ولقد جاء فى كتاب العقد الفريد : أن « جعفر بن يحيى البرمكى جلس يومًا للشرب ، وأحبّ الخلوة ، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، وجلس معهم ، وقد هيأ المجلس ، ولبسوا الثياب المصبّغة ، وكانوا إذا جلسوا فى مجالس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر ، ثم إن جعفر بن يحيى تقدّم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله تعالى سوى رجل من الندماء ، كان قد تأخر عنهم ، اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات ، وخفقت العيدان ، وكان رجل من أقارب الخليفة هو عبد الملك بن صالح .. بن العباس ، شديد الوقار والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه ، ويبذل على ذلك أموالاً جليلة ، فلم يفعل ، فاتّفق أن حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه فى حوائج له ، فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح ، الذى تقدم جعفر بن يحيى بالإذن له ، وألا يدخل عليه ، فأذن الحاجب له ، فدخل عبد الملك بن صالح على جعفر بن يحيى ، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفطن أن القضيّة قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم ، وفطن عبد الملك بن صالح أيضًا للقصة ، وظهر له الخجل فى وجه جعفر بن يحيى ، فانبسط عبد الملك وقال :

« لا بأس عليكم ، احضروا لنا من هذه الثياب المصبّغة شيئًا » ، فأحضر له قميص مصبوغ ، فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال: «اسقونا من شرابكم» ، فسقوه رطلاً :

ونلمس من هذا مدى الأمان الذى أحسّ به قريب الخليفة الرشيد من ارتداء قميص مجلس الشراب ، لينقلب نديمًا من الندماء الجالسين مع جعفر البرمكى ، ويبادلهم كئوس الشراب التى تمنّع عنها ، وتأبىّ رغم إلحاح قريبه الخليفة عليه من قبل !!

وسواء سقاه الشاربون رطلاً أم أقلّ من رطل ، فإن عبد الملك ذاك لم يعد يحسّ بالغربة بينهم ، رغم أنهم جميعًا عنه غرباء .

كذلك سواء كانت هذه القصة كخبر قابل للتكذيب أو التصديق ، رغم أنه ورد فى أربعة كتب تراثية أخرى غير العقد الفريد ، هى الفخرى فى الآداب السلطانية ، والمستطرف من كل فن مستظرف ، والوزراء والكتّاب ، والديارات ، مما يؤكد صدق القصة كخبر ، لكن ما يهمنا هو الزىّ المميّز لندماء المجالس ، الذى نراه الآن على أجسام العاملين فى مجال السياحة رجالاً ونساء على السواء .

لكن ليس بالزىّ وحده يتميّز النديم القديم ، وإنما تشترط فيه صفات وطباع ، منها الظاهرى الملموس ، وأخرى معنوى فى التعامل محسوس .

فالوجه الصبوح مفضّل فى النديم على غيره ، ومن ثم يكون الخلوّ من العاهات والعيوب مكملاً لجمال هذا الوجه واعتدال القامة ، وقديمًا قال الخليفة المتوكل فى الشاعر الظريف أبى العيناء « لولا أن أبا العيناء ضرير لنادمناه » ، كما يحسن أن يكون خال من العادات المنفرة

كالتجشّؤ أو سلاسة البول ، والوجه الصبوح والقامة المعتدلة ، يحتاجان أن يكتملا بالحرص على النظافة ، نظافة الكف والأظافر والشارب والأنف والملابس من باب أولى .

أما الصفات المعنوية المرغوبة فى النديم ، فعلى رأسها أن يكون وَدُودًا مع الغرباء ، غير حسود لما ينعمون به من عزّ ومال ، كريم النفس واليد فلا يبخل على نفسه بارتداء فاخر الثياب ، عفَّ اللسان ، فيزيّن سيرة جلسائه ، ولا يفشى ما يراه من تصرفات مشينة تفضحهم ، وأن يكون متواضعًا لا يأنف من خدمة الغرباء ، فضلاً عن أن يكون ظريفًا ذكيًّا ، ليكتسب محبة الجميع .

كل هذه أمور لم تفت الأديب العربى القديم ، فنصّ عليها فى أدب المجالس .. التى يؤمّها كل مستويات البشر ، الغرباء منهم والأقرباء ، فما الذى كان يجرى فيها ؟ إن كل ما يخطر على بال إنسان هو الذى يدور فيها !! أكل وشرب وغناء ، وموسيقى وشعر ومساجلات ومطارحات ، ومبارزات وصيد وسباق .. كلها أخبار لهو امتزجت بالجادّ من الشئون ، وجمع شتات الأقاويل من القديم والجديد ، القريب منها والبعيد ، لكنها كلها ظلّلتها غايات إزجاء أوقات الفراغ بشتى الفنون .

ومن أمثلة ما دار فى مجلس من تلك المجالس ، فمجلس المأمون حين قال غريب من الغرباء يروى حديثًا شريفًا لرسول الله ﷺ

« العباد عباد الله ، والبلاد بلادُ الله ، فأينما وجدتَ الخير فأقم واتق الله». صدق رسول الله .

فردّ آخرون من الغرباء يبدو أنه كتابى بقوله : مكتوب فى التوراة : « ابن آدم ! أَحدِثْ سفرًا أُحدِث لك رزقًا » .

وثالث قال : من أمثال العامة ، البركات مع الحركات .

ورابع يقول : فى السفر ثلاثة معان : الأول الغُرْم ، الثانى القدرة ، والثالث الرحيل . ويؤيده الخامس بترديد بيت عروة بن الورد الذى قال فيه :

فسِرْ فى بلاد الله والتمس الغنى   تعش ذا يسارٍ أو تمُوت فتَعْذَرا

لكن سادسًا يعارض بيتًا لامرئ القيس قال فيه :

وقد طوّفتُ فى الآفاق حتى   رضيتُ من الغنيمة بالإياب

والسابع يتناول نوعًا آخر من السفر برواية هذه الأبيات :

وعجز بذى أدب أنْ يضيقَ   به عيشُه وسع هذى البلاد

وما غَرب الرزق عن رائدٍ   ولاسيّما حسنُ الارْتياد

وإذا ما الأديب ارتضى بالخمولِ   فلاحظٌ فى الأدب المستفاد

وفى الاضطراب وفى الاغتراب   منالُ المُنى وبلوغُ المراد

جبِ الأرض شرقا وجبْ غربُها   إلى كل فج عميق وواد

ثم تطرّق حديث المجلس إلى كرم الضيافة وإكرام الضيف ، فأجمع الجالسون على أن ما قيل فى ذلك قول مسكين الدارمىّ :

طعامى طعامُ الضيف والرحْلُ رحْلُه ولـم يلْهنى عنـه غـزال مقنَّـع
أحدِّثه إن الحـديـث مـن القـرى وتعلَمُ نفسى أنـه سـوف يهجعُ

كما أجمعوا أنه من سمات إكرام الضيف تقديم أحسن ما عند المضيف من طعام إليه ، وفى ذلك قال أبو ذؤيب :

لا دَرّ درِّى إن أطعمتُ نازلَهُم خُبزَ الشعير وعندى البُرُّ مكْنوزُ

وردّد أحدهم فتوى الإمام الأوْزَاعى حين سأله سائل : رجلٌ قدّم إلى ضيفه الكامخ والزيتون ، وعنده اللحم والعسل والسمن ، فأفتى قائلاً : « هذا لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر » .

وصدّق على ذلك بحديث رسول الله ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيْفَه ، جائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام ، وما زاد فهو صدقة ، ولا يحلّ أن يثوى غيره حتى يخرجه) .

وانتقل الحديث إلى المودّة والتودد للناس ، فانبرى صاحبنا الكتابى يقول : جلس داود عليه السلام كئيبًا خاليًا ، فأوحى الله إليه : مالى أراك خاليًا ؟ قال : هجرت الناس فيك ، قال : أفلا أدُلّك على شيء تبلغ به رضاى؟ خالق الناس بأخلاقهم، واحتجز الإيمان فيما بينى وبينك.

فحكى أحد الجالسين أن الحكيم العتّابى سأله أحد جلسائه بقوله : إنك تَلقَى الناس كلهم بالبشْر !! فقال : دفع ضغينة بأيسر مؤونة ، واكتساب إخوان بأيْسر مبذول .

فأنشد أحدهم بيتيْن لكُثيّر عزّة الذى يقول فيهما :

ومَن لا يغمِّضْ عينه عــن صديقه   وعن بعض ما فيه يمُتْ وهو عاتبُ
ومــن يتّبــعْ جاهــدًا كل عــثرةٍ   يجدْها ولا يَسْلمْ له الدهرَ صاحبُ

وصفق أحد الجالسين مستحسنًا وهو ينشد :

ما نالـت النفسُ على شـهوة   ألـذَّ مـن ودّ صديـق أمـينْ
مــن فاتـــه ودّ أخٍ صــالح   فـذلك المغبـون حق اليقين

فنطق رجل يبدو الصلاح على وجهه بالقول، قال رسول الله ﷺ : (ألا أنبئكم بشراركم ؟) قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : (من لا يقيل عَثرة ولا يقبل معذرة ، ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلكم ؟) قالوا : بلى . قال : (من يبغض الناس ويبغضونه) .

هنا صفق الخليفة المأمون وهو يقول : صدق رسول الله ﷺ ، فأدرك حاجب المجلس رغبة أمير المؤمنين فى الاكتفاء بهذا القدر من الأحاديث ، فهمس فى أذنه : أنفضّ المجلس يا مولاى أم نواصل السهر .. ؟ .. فأومأ المأمون بالإيجاب وفهم الحاجب بغيته ، وانفلت ليحضر نوعًا آخر من السمر ، لكن بدويًّا من الجالسين لم يفهم إلا الإيذان بالانصراف .. فوقف منشدًا :

فِراقك مثـل فِراق الحيـاة   وفقـدكَ مثـل افتقاد الديَمْ
عليك السلام فكم من وفاء   أفارق منـك وكم من كرمْ

فلكزه الحاجب فى جنبه وهو يهمس ، لا تقف ، لئلا يغضب عليك أمير المؤمنين ، فجلس البدوى وهو يتساءل : هل من بقية فى الجعبة ؟ ، وأجابه الحاجب مواصلاً همسه : غناء عريب ، وبدا الامتعاض على وجه البدوى وهو يعلّق قائلاً : لا أريد سماع العجوز ، أما كفاها نواحا ، نريد بوران .

وهنا ضربه الحاجب على أم رأسه محذّرًا إيّاك أن تذكر اسمها على لسانك .

وكاد البدوى يصيح محتجا يسأله : لماذا ؟ أهذا إكرام ضيف من ضيوف أمير المؤمنين .. وتظاهر الحاجب بالضحك وهو يطمئنه ويحذره فى آن واحد ؛ لا ، ولكننى أثبّت رأسك على رقبتك ، وضحك الجميع بينما شرعت عريب فى الغناء ، وحولها كثيرات من الجوارى الجميلات يتمايلن مع الغناء وهنّ جالسات يرقصن .

أنعمْ تخطّتْك صروف الردى	يقرب بوران مدى الدّهر
درّة خِدر لم يزل نجمُها	بنجم مأمون العُلا يجرى
حتى استقرّ المُلك فى حجرها	يورك فى ذلك من حجر

وظلت صيحات الاستحسان واستعادة الألحان تطلب المزيد ، فينجلى صوت عريب وتجيد ، وتصدح الموسيقى بين تصفيقات الجوارى والزغاريد ، وتمتد أيدى الجالسين تتناول كئوس شراب وردىّ من الساقيات الصغيرات ، وعلت البهجة الوجوه ، وتناولت

عيون الساهرين النظرات والغمزات ، ليتسلل البعض إلى الردهات متخففًا من حرارة المجلس الرحيب ، فشبّ رجل قصير متظاهرا بالطول وهو يقول :

من يكنْ يكره الفراق فإنّى أشتهيه لموضـع التسـليم
إنَّ فيـه اعتناقـةً لـوداعٍ وانتظـار اعتناقـه لقـدوم

وضج الجلوس بالضحك لعملقة القزم وصراحته السافرة، وهلّلوا لآخر وهو يهتف بصدر بيت لم يكمل عجزه.. صاح الغراب بوشْك البيْن فارتحلوا.

ودلف المتحدّثون إلى مثار حديث مثل هذه الأمسيات فى كل مكان.. وسمعوا صوت المأمون واضحًا وهو يقول لجليسه وراء ستار : « النساء شرٌّ كلهن ، وشرّ ما فيهن قلّة الاستغناء عنهن » .

وهنا انبرى أعرابى وهو يقول : صدقت يا أمير المؤمنين .. ثم أنشد :

من منزلى قد أخرجتْنى زوجتى تهـرّ فى وجهى هرير الكلبـة
زُوِّجتهـا فقـيرة فـن حِـرْفتى قلت لهـا لمّـا أراقـت جرّتى
أم هـلال أبشـرى بالحسـرة وأبْشـرى منى بـوقـع الضرّة

فانفجر الجميع بالضحك حتى وقف كهل يحكى ما سمعه من جدّه مع الحجّاج لا أعاد الله أيامه ، فقال :

« دخل جدّى على الحجّاج فسمعه يقول : لا تكْمل النعمة على المرء حتى يتزوّج أربع نسوة يجتمعن عنده ، فصدقه جدّى الأبله وانصرف ليبيع متاع بيته ، وتزوّج أربع نسوة ، فلم توافقه منهن

واحدة ، خرجت واحدة حمقاء رعناء ، والثانية متبرجة ، والثالثة لا يطيقها أى رجل ، والرابعة مذكّرة . وذهب الجدّ إلى الحجّاج وقال له : أصلح الله الأمير ، سمعت منك كلاما أردت أن تتم لى به قرّة عين ، فبعت جميع ما أملك ، حتى تزوجت أربع نسوة ، فلم توافقنى منهن واحدة ، وقد قلت فيهن شعرا ، فاسمع منّى .. فأذن له الحجاج .. وقال جدّى :

تزوّجت أبغى قرّة العين أربَعا ... فياليت أنّى لم أكن أتزوج

ويا ليتنى أعمى أصمّ ولم أكن ... تزوَّجت بل ياليت أنّى أعرج

واحدة ما تعرف الله ربَّها ... ولا ما التُّقى تدرى ولاما التحرّج

وثانية ما أن تقرّ ببينها ... مذكرة مشهورة تتبرّج

وثالثة حمقاء رعنا سخيفةٌ ... فكل الذى تأتى من الأمر أعوج

ورابعة مفروكة ذات شِرّة ... فليست بها نفسى مدى الدهر تُبْهج

فهُن طلاقٌ كلهّن بوائن ... ثلاثا ثلاثا فاشهدوا لا تلجْلجوا

وقهقه الجميع حتى استلقى البعض على أقفيتهم ، بينما يقول الكهل : « ضحك الحجاج حتى كاد يسقط من سريره ، وقال له : كم مهورهنّ ؟ فأجاب : أربعة آلاف درهم ، فأمر له بثمانية آلاف درهم .

وعلقّ أحد الغرباء ، ليتزوّج أربعا غيرهن يا رجل .. أم ماذا ؟ !!

هكذا تواصلت الليلة فى قصر المأمون ، وتنوّعَت فيه شتى

العروض ، وتعالت فيه الضحكات المتعانق فيها الخشن بالناعم ، وتتلاقى العيون منها الخفر ومنها الجسور ، حتى بزغ نور الصباح .. فانصرف الساهرون متمايلين إلى حيث تواروا فى ديارهم عن الأنظار .

فنون شعبية أو أدب الشعب

مما رأينا فى عروض متنوعة بمجلس المأمون وغيره من ساحات الرشيد والعباسيين على وجه العموم ، يستوجب الأمر أن نتعرف على ما كان ببعضها من أداءات شعبية اعتمدت على الإبداع الشعرى الشفاهى وما دوّن منه لجماهير الشعب المشاركة فيه .

ولابدّ هنا أن نستدرك قائلين ، إن المديح والهجاء لم يكونا موجّهين لاسترضاء الحكام والتهجم على أعدائهم ، وإنما كان فى بعض الأحيان أدبًا شعبيًا يعبّر عن أمزجة العامة وحماساتهم لانتصارات بطل من الأبطال على الروم وأهل بيزنطة ، بل إننا وجدنا الشعراء يبدعون النوعين من الأدب ، مع التغاضى عن مقولة مجهولة ، مصادر الأدب الشعبى وأصحاب أزجالها وحكاياتها ... فانتشار أعمال أولئك الشعراء على ألسنة العامة ، وما يلحق بها من تحريفات يدخلها فى زمرة الأدب الشعبى ، ولو استمعنا الآن إلى قصيدة بسيطة لأبى العتاهية يشكو من غلاء الأسعار ، وذيوعها على الألسن لاعتبرناها أدبًا شعبيًا إنه قال فيها :

من مبلغٌ عنى الإما   م نصائحًا متتاليــة

أنّي أرى الأسعار أسـ ـعارَ الرعية غالية
وأرى المكاسب نزوة وأرى الضرورة فاشية
من يُرتجى لدفاع كرْ ب ملمّة هى ماهية
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العارية
ألقيت أخبارًا إليـ ك من الرعية شافية

والشاعر هنا يشكو إلى أى خليفة من هذا الغلاء ، لكنه أيضا يقدم شكواه باسم الرعية التى تعانى كلها من هذا الغلاء ، فلا عجب أن تشيع مثل هذه المنظومة وغيرها على ألسن العامة ، وتلقى تجاوبًا منهم .

كما أن الأدب الشعبى لم يكن كله شكوى ، وإنما كان يحتوى أغانى يتغنى بها الملاحون فى نهر دجلة روحة وجيئة ، وها هم يغنّون إحدى اهزوجات أبى العتاهية أيضًا ..

سيصير المرء يوما جسدًا ما فيه روح
كلنا فى غفلةٍ والمو ت يغدو ويروح
لتموتَنّ وإن عمِّرْتَ ما عُمِّر نوح

لكن أبا العتاهية لم يكن وحده القائم على هذا النوع من الأدب ، فقد كان غيره كثيرا بل كان زعيم هذا النوع فى عصر المأمون شاعرًا خراسانىّ الأصل ، عاش وتنشأ فى البصرة ، اسمه مروان بن محمد واشتهر بطول قامته وقبح شكله وخبث لسانه ، فأطلق عليه كنية

الشمقْمق ، حتى إنه فاق بشار بن برد فى سلاطة اللسان ، وكان يتحاشاه ويتفادى لقاءه ، اسمعه يصف سوء طالعه بقوله :

لوْ ركبتُ البحر صارت فجاجًا ... لا نرى فى متونهـا أمواجًـا
ولـو أنى وضعتُ ياقوتـة حمر ... اءً فى راحتى لصارت زجاجًا
ولـو أنى وردتُ عذْبـا فراتـا ... عـاد لا شكّ فيه ملحا أجاجًا

كما يشكو مثل أبى العتاهية لا من الغلاء ، بل من انعدام الخبز والأدام أيضًا .. فيصوّر ذلك قائلاً :

ما جمع النـاس لدنياهم ... أنفع فى البيت من الخبز
والخبز باللحم إذا نلتـه ... فأنـت فى أمن من الترْزِ
وقد دنا الفطر وصبياننا ... ليسـوا بذى تمر ولا أرز
كانت لهم عنزٌ فأودى بها ... وأجدبـوا من لبن العنز
فلو رأوا خبزًا على شاهق ... لأسـرعوا للخبز بالجمْز
ولو أطاقوا القفْزَ ما فاتهم ... وكيف للجـائع بالقفـز

مثل هذه الصور الشعبية ، ولو أنها كانت تتضمن الشكوى والألم ، لكنها لم تكن تخلو أيضًا من الفكاهة ، لما تضمنته من تهكم بالحضيض الذى لم يعد بعده أى حضيض ، فتثير الشفقة وتنتزع الضحكة أيضًا ، فتخفف من وقع الواقعة على الطرفين . حتى فى مواكب الملاّحين فى نهر دجلة ، رغم تغنيهم بأهازيج حزينة المضمون ، فهى أيضًا تملأ على راكبى النهر حياتهم بالنغمة

والتصفيق والصوت الرائق المتبوع بالأصوات الجماعية، ممايدفع الملاحين إلى الحماسة فى الملاحة وضمان الوصول .

وللأدب الشعبى العربى امتدادات وذيول ، فقد استمر هذا التيار الشفاهى بعد الشمقمق ملازمًا للدولة العباسية ، حتى تفتتت إلى ممالك وولايات .. وكان من أبرز أولئك الأدباء الشعبيين طائفة الملْدين ، وفيهم أبو العبر العباسى ، وأبو العجل وغيرهم ، وهم طائفة اشتهرت بالهزل والإضحاك بمخالفة المألوف من كلام الناس وركيكها تارة ، واتخاذ التحامق كوسيلة تارة أخرى ، وبالتزيىّ بكل شاذ من الأزياء تارة ثالثة ، وإضافة حروف إلى الكلمات العادية بلا ضرورة تارة رابعة ، والإكثار من وصف الجوع والفقر والتطفل تارة خامسة ... وكلها كان يلقى صداه لدى العامة بالتجاوب والترديد ، فيشيع ويسود ، وتهتزّ سرائر الحكام خوفًا وغيظًا ، فيتوعّدون بالويل والثبور قائليها ، أو يغرونهم بالنزر اليسير من المال ثمنًا لصمْتهم .

اسمع شعر أبى العجل ، وأمعن النظر فى ما وراءه وهو يقول :

أياعاذلى فى الحمْق دعنى من العَذْل ... فإنى رخىُّ البـال من كثرة الشُّغْل
ومُـرْنى بمـا أحببتَ آتِ خلافَـه ... فـإن جئتنى بالجدِّ جئتك بالهـزل
وإن قلت لى: لِمَ كان ذاك؟ جوابه ... لأنى قد استكثرت من قلـة العقل
فأصبحت فى الحمقى أميرًا مؤمّرًا ... وما أحدٌ فى النـاس يمكنـه عزلى
وصـيّر لى حمـقى بغـالاً وغلمـةً ... وكنت زمـان العقـل ممتطيًا رِجْلى

ومن أعلام هذا النوع من الأدب ، ذلك الشاعر الأمِّى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وإنما كان شاعرًا بالسليقة ، يتكسّب من شغله عاملاً فى مخبز ، فيخبز خبز الأرز ويبيعه ، ومن شغلته اشتق اسمه الإضافى لاسم ، نصر بن أحمد الخُبْز أرزى !!

وهو من وجهة أخرى يعتبر مثلاً حيًّا على جناية النقاد ودارسى تاريخ الأدب فى عصره وما تلاه ، فلم يعترفوا له بأشعار شفاهية إلا ما استملحوه من أبيات متفقة والفصيح من اللغة الغربية ، واستبعدوا ما أبدعه بالعامية ، ومن ثم أفقدونا شهادة عصره على تطوّر الصلة والتلاقح بين الفصحى والعامية .

ومع ذلك فإن ما بقى مسجّلا فى أمهات كتب التراث الأدبى ينمّ عن أصالة وروح فكاهة ، وسرعة بديهة ، تؤكد امتلاكه لأدوات حرفته الأدبية بجانب حرفة العجن والخَبز ، ويكشف لنا من ناحية ، الصور الصادقة لقاع المجتمع العباسى فى تلك الحقب الممتدة ، ها هى أبياته التى تكاد ترقص بموسيقاها وشخوصها حين يقول :

كَمْ أنـاس وفَوْا لنا حين غابـوا   وأنـاسٍ جَفـوْا وهـم حضّـار
عرّضوا ثم أعرضـوا واستمالوا   ثم مـالوا وجـاوروا ثم جـاروا
لا تلمْهـم على التجنّى فلـوْ لم   يتجنّوْا لم يَحسـن الاعتـذار

وها هو يصف مائدة طعام لدى مضيف قلّت أطباقها .. بقوله

ولعمرى كان الخوان ولكنْ | لم يكن ما يكون فوق الخوان
وجِفانٍ مثل الجوابى ولكنْ | ليس فيهن ما يُرى بالعيان
فإذا ما أدرت فيها بنانى | لم أجدْ ما أمسّه ببنَان
إننى ما ضعٌ على غير شىء | غير صَكّ الأسنان بالأسنان
ترجع الكفّ وهى أفرغ منها | عند مدِّى لها فدأبى وشانى

إننا وإن كنّا نلمس مَدى الدعابة الغالبة هنا ، التى قد توهم القارئ المعاصر بالجهد الذى يبذله الخبز أرزى ، فى صياغة معانى قصيدته لتخرج خفيفة الظلّ ، وكأن الأدب الشعبى سمته الأساسية الحزن أو الحماسة فى الملاحم الشعبية ، لكننا يكفى أن نتمثل أمّية ذلك الأديب ، الذى ينطلق مبدعًا متخففًا دون أدنى تهذيب ، اللهم إلا إذا كانت أقلام مؤرخى الأدب ونقّاده ، هى التى لعبت بأعمال الخبز أرزى لا مستبعدة أو باترة فحسب ، بل أيضا معدّلة ومهذبة بما يتفق مع أهوائهم .. والصورة الثالثة التى رسمها لنا الرجل .. هى فى حبّه وغزله .. إذ يقول :

رأيت الهلال ووجه الحبيب | فكانا هلالين عند النظرْ
فلم أدْر مِن حيْرتى فيهما | هلال الدُّجى من هلال البشرِ
ولوْلا التورّد فى الوجنتين | وما راعنى من سواد الشعرْ
لكنت أظن الهلال الحبيبَ | وكنت أظن الحبيب القمر

إننا لو أطلقنا لخيالنا العنان ، ورجعنا إلى تلك العصور ، ورأينا

كيف كان التفاف الناس حول الخبز أرزى وغيره من الشعراء الشعبيين ، وكيف صاحبَ ذلك من مظاهر ، فى الملبس ، وفى المأكل ، فى الجدّ والهزل على السواء ، فى الحروب وفى أعقاب الحروب ، فى احتفالات الانتصار وفى تولىّ الخليفة بعد موت سلفه أو الإطاحة به ، فى الخوف من البطش وفى النفاق بالمدح ، فى كل هذه المتناقضات ، لأدركنا مدى أهمية أولئك الأدباء الشعبيين فى تعبئة المشاعر وفى تفريغها على السواء . ولوْ عاش بين أولئك فنانون تشكيليون ، لكانوا رسموا لنا لوْحات سجلت واقعهم النابض بشتى ألوان الحياة ، وبالتالى كانوا بذلك يقدّمون أصدق الوثائق للأجيال المتعاقبة ، وأدق التفاصيل للجماهير الوافدة ...

إننا من منطلق جمال الماضى وحنين الإنسان إليه ، والدليل على صحة هذا بقاء مثل هذه المنتوجات الشعرية حيّة للآن ، على الرغم من أنها استبدعت فى ظروف معينة ، لكنها تبعث على المتعة الفنية طوال هذه القرون السابقة ، وفى بيئات اجتماعية وثقافية متباينة ..

حتى ولو اعتبرنا – بغرورنا ونظرتنا المتعالية لحاضرنا المتقدم ، أن منتوجات القدامى تمثل مرحلة الطفولة البشرية غير المتقدمة ، ويستحيل على المرء أن يرتدّ طفلاً ، مع ذلك نشعر كلنا بالبهجة من سذاجة الطفولة وبراءتها ، بل ويتمنى كل منّا فى دخيلة نفسه أن يستمد من مرحلته الطفولية الأصيلة ارتقاء أعلى .

مهــام الأدب السيــاحى

فمن منطلق جمال الماضى ، ومن منطلق نظرتنا لطفولة المجتمع الإنسانى فى الماضى .. بسحره القوى وتأثيره الخالد علينا ، واستحالة عودة البشرية إلى طفوليتها ، يصبح من أهم الواجبات علينا اجترار هذه المرحلة التى لم تخلُ من ملامح الحكمة ، والتى نلمحها فى بعض أطفالنا الذين يتمتعون بحكمة الشيوخ ، يصبح من أهم واجباتنا الإبقاء على كل تلك الأنواع من تراث البشرية ، بآثارها الحجرية ، وأشعارها الشعبية وملاحمها التى لا تتوقف عند نهاية حاسمة ، وعروضها التى أمكن وصفها فى الموروثات الشعبية فى سائر أنحاء العالم ، وهذه هى مهمة الأدب السياحى .

كما أن من مهام الأدب السياحى أن يكون طليقًا من شطحات المدارس الأدبية ، فيجعل هدفه الرئيسى ، التعريف والإمتاع بالإبهار ، وهو هدف تثقيفى بالوصف ، وترفيهى بإبراز كل جميل فى هذه الموروثات ، لا شأن له بقيود النظريات ، ولا همّ له إلا إجادة تغليف هذه الخدمات السياحية بصياغة شائقة لتجسيد صدى الماضى بصوت

مدوّ معاصر ، تستسيغه أذواق الغرباء وحواسهم ، وهذا بدوره بالإمكان أن يكون منفذًا إلى عالمية هذا الأدب .

ومن مهام الأدب السياحى أن يطوّع اللهجات المحلية لأصولها اللغوية ، حتى يسهل على المتلقىّ ، سواء كان مواطنًا أم غريبًا ، أن يعثر علىّ ضالته فيما يشاهده أو يسمعه مستعينًا بما لديه من مترادفات ، وذلك بالتزام الانتقاء الدقيق للكلمات المتداولة ذات الجذور اللغوية الواضحة ، وهنا تتباين المقدرة بين كتاب الأدب السياحى باستخدام السهل من التركيبات اللفظية ، والأسلوب غير المتكلّف .

كذلك من مهام الأدب السياحى أن يكون فى تقديمه للأساطير والمعتقدات القديمة أمينًا على التراث المقدّم أولاً ، مع التنبّه إلى حقيقة المعاصرة التى يحملها إليها ثانيًا ، وهذا أمر يتطلب أن يضع كاتب هذا النوع من الأدب نصب عينيه ، الأحوال الاجتماعية السالفة ، والتطورات التى مرّت بها حتى سلمّته كتراث فى مجتمع جديد متغيّر ، فليس من المعقول مثلاً أن نلتقط أساطير فرعونية بعينها كأسطورة إيزيس وأوزوريس ولا نعرضها معزولة عن النيل أو إلهه الذى ربط بين الماضى وحاضرنا الذى نراه !!

كما أنه ليس من المعقول أن نعرض لأبراج الكنائس فى الأندلس وفى مصر ، ونتجاهل حقيقة تطوّر نشأة المآذن فى المساجد ، وخلوّ زوايا الصلاة من المآذن مستعيضة عنها بمكبرات الصوت ، وإذا ذهبنا إلى اليونان ، نقول إنه ليس من المعقول أن نعرض للميثولوجيا الإغريقية بمعزل عن الفن اليونانى ، لأنه هو النبت الذى تغذى وترعرع على

تلك الميثولوجيا ، كذلك الأمر بالنسبة لفن شكسبير ، لا يمكن تقديمه بعيدًا عمّا كان يعاصره من أحوال مجتمعه والظروف الطبيعية التى عايشها كل منها ، فهل إذا أمكننا استيعاب ذلك كله ووضعنا كل ذلك فى اعتبارنا ، هل يمكننا تقديم ذلك فى حضن مدنيتنا المعاصرة ؟ هذه هى المهمة العويصة للأدب السياحى ، وهى المحكّ الذى يميّز الأديب السياحى المتمكن عن غيره من المحاولين .

فإذا سأل سائل هل ندخل كتب الآثار فى عداد الأدب السياحى ؟ نسأله أولاً هل يتوافر فيها كلها أو بعضها عناصر الوصف والارتحال والموروث الشعبى ، وهل تستهدف اجترار المرحلة الماضية التى تضمنت بعضًا من حكم الشيوخ لدى هذه المرحلة الطفولية للبشرية ، وهل تخلصت من براثن المدارس الأدبية مكتفية بالصياغة الشائقة ، وهل صالحت بين اللهجات المحلية وأصول لغاتها العالمية ، وهل راعت تطوّرات الأحوال الاجتماعية منذ البداية حتى عصرنا ؟ كل هذه معايير علينا أن نغترف بها من كتب الآثار ، لنعثر على كم معقول من الأدب السياحى فيه ، والأمر نفسه نجريه مع كتب الرحلات وكتب الموروثات الشعبية .

بذلك نستطيع أن نعتبر كتاب « فى موكب الشمس » للدكتور العالم أحمد أحمد بدوى ، نوعًا من الأدب السياحى لأسلوبه الأدبى الراقى بانسياب محبوب ، ولو أنه خلا من أدب الارتحال ! .

أساطير حول الأهرامات

لكن استمع إلى الشاعر الفحل المتنبى وهو يرثى أحد رجال مصر بعد أن خرج منها ساخطًا على كافور الإخشيدى .. فيصف الهرمين ببيتين يتيمين بقوله ..

أين الذى الهرمـان من بنيانِـهِ مَنْ قومه؟ من يومه ؟ ما المصرعُ؟
تتخلف الآثـار عن سُـكَّانها حينًا ، ويدْركهـا الفنـاء ، فتتبعُ

فالمتنبى يُبدى رأيه فى هرمى مصر إحدى معجزات الزمن ، من نبع سخطه على حاكم مصر الذى لم يشبع طعمه فى تولّى إمارة من إماراتها ، فلم تجد قريحته إلا بيتين اثنين يعلن فى أحدهما حتمية فناء كل هذه الآثار لتلحق بمن شادوها !! !

ويبدو حقد المتنبى فيهما لو قارنّا هما بما قاله عمارة اليمنى فى العصر الفاطمى عن الهرمين نفسيهما إذ يقول مصوّرا مناعتهما أمام الدهر ..

بنـاء يخاف الدهر منه ، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزّه طـرْفى فى بـديـع بنـائهـا ولم يتنزّه فى المـواد بها فكـرى

ويكرر السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة هذا المعنى بقوله ممزوجًا

بأقوال الناس التى كانت أقرب إلى الخرافات : « إن الذى بنى الأهرام هو سوريد بن سلهوق من شرياق ملك مصر ، وكان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة ، وسبب ذلك أنه رأى فى منامه كأن الأرض انقلبت بأهلها ، وكأن الناس هاربون على وجوههم ، وكأن الكواكب تساقطت ، ويصدم بعضها بعضًا بأصوات هائلة ، فاغمّه ذلك ، وكتمه ، ثم رأى بعد ذلك كان الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض فى صورة طيور بيض ، وكأنها تخطف الناس ، وتلقيهم بين جبلين عظيمين ، وكأن الجبلين انطبقا عليهم ، وكأن الكواكب النيّرة مظلمة ، فانتبه مذعورا ، وجمع رؤساء الكهنة فى جميع أعمال مصر ، فأخبروه بأمر الطوفان ، فأمر بذلك عند بناء الأهرام ، وملأها طلسمات وعجائب وأموالاً وخزائن ، وكتب فيها جميع ما قالته الحكماء ، وجميع العلوم الغامضة ، وأسماء العقاقير ، ومنافعها ومضارها ، وعلم الطلسمات والحساب والهندسة والطب ، وكل ذلك مفسّر لمن يعرف كتابتهم ولغاتهم ، وأحضر لها الصخور من ناحية أسوان ، وجعل أبوابها تحت الأرض بأربعين ذراعًا » وظلّ السيوطى فى وصفه الخيالى لنفهم منه تجاه مصر من الطوفان بهذين الهرمين الشامخين ، ولا أدرى كيف غاب على السيوطى نزول مياه الطوفان وغمرها للأبواب التى كانت على عمق الأربعين ذراعًا !! وبذلك أفقد السيوطى ما كتبه الصدق الذى يجب أن نحترم به عقلية قارئ الأدب السياحى .

لذلك فقد بدت الحيرة فى أقدم ما كتب من الشعر العربى حول الأهرامات ، فقال أحدهم :

حَسَرتْ عقول أولى النُّهى الأهرام ... واستصغرت لعظيمها الأجرامُ
مُلْسٌ ، موثقة البناء ، شواهق ... قصرت لعالٍ دونهنّ سهامُ
لم أدر حين كبا التفكّر دونها ... واستعجمت لعجيبها الأوهامُ
أقبور أملاك الأعاجم هن ، أم ... هذى طلاسم رمل أم أعلامُ ؟

لكن انظر إلى الهرمين من خلال أشعار رقيقة لشاعر أندلسى هو أبو الصّلت أميّة بن عبد العزيز حين ينشد ..

بعيشك، هل أبصرت أحسن منظرا ... على ما رأت عيناك، من هرمى مصر
أنافا بأعنانِ السَّماء ، وأشرفا ... على الجوّ إشراف السِّماكِ أو النّسْر
وقد وافيا نشْزًا من الأرض عاليا ... كأنهما نهْدان قاما على صدر

وقد تلقّف شاعر آخر أكثر حداثة ذلك المعنى فرسم له صورة خلاّبة فقال :

انظرُ إلى الهرمين إذ برزا ... للعيْن فى عُلْو، وفى صُعُد
وكأنما الأرض العريضة إذ ... ظمئَت لفرط الحرِّ والرَّمد
حسَرتْ عن الثدْيين بارزة ... تدعو الإله لرقّة الولد
فأجابها بالنيل يُوسِعُها ... ريًّا ، ويشفيها من الكمد

فما أجمل هذه الصورة فى الأدب السياحى ، التى جَعَلَت من مصر صدر الأرض ، وأن الهرمين ظلاّ نهدين لها رغم كثرة ما أنجبت من أجيال ، يُرضعاها من ماء النيل الحنون . ولا يحق لنا أن نتجاهل ما كتبه الجاحظ عن عجائب الدنيا ، فقال : إنها : « ثلاثون أعجوبة ،

عشرة منها بسائر البلاد ، والعشرون الباقية بمصر ، وهى « الهرمان » وهما أطول بناء وأعجبه ، ليس على الأرض بناء أطول منهما ، وإذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان ، ولذا قال بعض من رآهما : ليس شيء إلا وأنا أرحمه من الدهر إلاّ الهرمان ، فأنا أرحم الدهر منهما ، وصنم الهرمين رابض بينهما ، وتسمّيه العامة : أبا الهول ، ويقال إنه طلسم الرمل ؛ لئلا يغلب على الجيزة ... لنترك الجاحظ يعدد بقية الأعاجيب العشرين بمصر صعيدها واسكندريتها . ولنمتّع النظر فيما كتبه المحدثون عن آثار مصر نثرًا وشعرًا .

وأول ما يخطر على البال قصائد البارودى السياحية، حيث عاش بجانب الأهرام شهرًا يتأملها ويقول مؤكدا رسوخها ..

بناءان ردّا صولة الدهر عنهما ... ومن عجب أن يغلبا صولة الدّهر
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا ... لبانيهما بين البريّة بالفخر
فكم أمم فى الدهر بادت وأعصر ... خلت، وهم أعجوبةُ العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما ... أساطير لا تنفكّ تتلى إلى الحشر
رموزٌ لو استطلعت مكنون سرّها ... لأبصرْتَ مجموع الخلائق فى سطْر
فما من بناء كان أوْ هو كائن ... يدانيهما عند التأمّل والخُبْر
يقصّر حُسْنًا عنهما صرح بابل ... ويعترف الإيوانُ بالعجز والبُهْر
فلو أن هاروت انتحى مرصديهما ... لألقى مقاليد الكهانة والسّحْر

وهى قصيدة امتلأت برصانة اللغة ، وسعة النظرة المقارنة ، واللفظات العربية الفصيحة ، وهى فى الوقت نفسه كفنّ شعر تصعب ترجمته إلى لغات سياحية نحافظ فيها على جزالة الصياغة العربية المتوافرة لديه ، خصوصًا إذا ما تذكّرنا أن البارودى هو محيى الشعر العربى القديم بلا جدال ، والذى كان يتمسك فيه باستخدام كلمات تصعب على المواطن العربى نفسه .. انظر مثلاً إلى هذين البيتين الذى يصف بهما أبا الهول .. فيقول ..

وبينهما «بلهيب» فى ظل رابض	أكبّ على الكفيّن منه إلى الصّدر
يقلب نحو الشرق نظرة وامق	كان له شوقًا إلى مطلعٍ الفجر

والمقصود بيلهيْب أبو الهول ، فما المانع لو قالها بُلْهوْل مثلاً ، وما المانع لو استخدم كلمة عاشق بدلاً من وامق هذه !! لن ينكسر البيتان بالطبع .. ولكن الإغراب فى استعمال اللفظات المهجورة ، هو الذى حدا بالبارودى أن يصعبّ الأمر على قارئ قصيدة سياحية هنا ، مع أنها اشتملت على معنى جديد وهو اشتياق أبى الهول إلى مطلع الفجر بنظرته إلى الشرق ، كذلك ما تلاها من أبيات تضمنت معانى مبتكرة .. كاحتواء الأهرام على مصانع للعلوم ومعامل للبحوث للتأمل فى العلوم الغامضة التى لم تصل إلى سرّها بعد ، وارتفاعها لتكون مقرًّا للنجوم ولتكون آيات تدل على عظمة الإعجاز الإنسانى .

ويجب أن نعترف كذلك بالتفات الشاعر إلى حاضر بعض الصخور

التى حطّمها الزوّار وضيّعوا معالم الكتابة المنقوشة عليها ، وما كانت تشير به إلى ثروات وكنوز ، وهذه فى حدّ ذاتها نظرة حضارية متقدّمة من البارودى تستنكر الاعتداء على الآثار ، ولوْ أن البارودى فاته أيضًا الإشارة إلى لصوص الآثار الذين وُجدوا فى عصور مختلفة . ومع ذلك شفع له هذا النسيان ما ساقه شاعر آخر معاصر له هو إسماعيل صبرى يستنهض همم أبناء الحاضر من تلك الأمجاد التى تركها الفراعنة على لسان أحدهم ..

أمْرتكُمُ ، فأطيعـوا أمْـر ربِّكُـمُ لايثْن مستمعًا عـن طـاعة ثـان
فالملك أمْـر وطاعــات تسابقــه جنبًا لجنـب إلى غايـات إحســان
لاتتركوا مستحيلاً فى استحالته حتى يميط لكم عن وجـه إمكان

وفى نفس الاتجاه تناول الداعية الإسلامى جمال الدين الأفغانى آثار مصر الفرعونية بما فيها من شموخ وعزة وكرامة ، فيستحثّ المصريين بقوله :

« انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزّة أجدادكم ، هبّوا من غفلتكم ، اصحوا من سكْرتكم ، عيشوا كباقى الأمم أحرارًا سعداء » .

فكلاهم استخدم إبهار الآثار فى الكشف عن معنى لأبناء الحاضر ، يشاركون فى الإعجاب نعم ، وأيضا الاستجابة لما انطوت عليه من

إباء وعزّة ومنعة ، وفى هذا يتوافر عنصر عدم المباشرة فى الدعاية للآثار التى يستهدفها الأدب السياحى . والشاعر إسماعيل صبرى لا يكتفى فى استنطاق فرعون بأوامر لبنى وطنه من المصريين ، بل يجعلهم يردّون بالطاعة والعزم على حمل الأمانة عندما يسوق على ألسنتهم :

مقالةٌ هبطت من عرش قائلها   على مناكب أبطالٍ وشجعان
مادتْ لها الأرض من ذُعْر، ودان لها   ما فى المقطّم من صخر وصوّان
لو غيرُ فرعون ألقاها على ملأ   فى غير مصر لعدَّت حُلمَ يقظان
لكنّ فرعون إن نادى بها جبلا   لبّتْ حجارتُه فى قبضة البانى

وهنا لا يفوتنا ما أسهم به أمير الشعراء من سهام وافرة فى الأدب السياحى ، فهو لم يكتف بما جمعه الآخرون من معان فى تمجيد آثار مصر عامة والأهرامات خاصة ، ولم يقنع بتعصير وجودها بيننا ، وإنما أضاف إليها ممّا مرّ من أحداث فى التاريخ الحديث فيخاطب نابليون وهو مدفون فى قبره بقوله :

قم إلى الأهرام، واخشَعْ، واطرح   خيلة الصِّيد وزهو الفاتحين
وتمهّل ؛ إنما تمشى إلى   حرم الدَّهر ، ومحراب القرون
هو كالصخرة عند القبط، أو   كالحطيم الطهر عند المسلمين
أين « نَسْر » قد تلقّى قبلكم   عظة الإجيال من أعلى بناء
جرح الأهرام فى عزّتها   فمشى للقبر مجروح الاباء

والنسْر هنا بالطبع يريد به شوقى نابليون نفسه ، الذى يناجيه محذرًا .

وتسنّــم منبرًا من حجــرٍ   لم يكن قبلك حظَّ الخاطبين
وأعدهـا كلمــاتٍ أربعًــا   قد أحاطت بالقرون الأربعين
ألهبت خيلا ، وحضّت فيلقا   وأحالت عسلا صاب المنون

ويكاد أن يوخز بنى وطنه مصر لوْمًا وتأنيبًا بقوله :

عظــة قــومى بهــا أوْلى ، وإن   بعــد العهــد ، فهــل يعتبرون
هــذه الأهـــرام تـاريخُهمـــو   كيـف من تاريخهـم لايستحون

وهذا بالطبع استثناء فى الأدب السياحى ، إذ لا يقبل هذه الأبيات المقرعة إلا من كانوا من بنى جلدته ، لأنه لو كان غريبًا أو سائحًا ، لما تقبّل منه هذا النوع من التقريع ، وما أثر فى نفوسهم اللهم بالسلب أو العكس ، لكن شوقى الشاعر ، يطلق هذه الأبيات من منطلق الغيرة على ماضى وحاضر مصر ، إن هذا الشعور لم يتخلّ عنه حتى وهو فى منفاه بالأندلس ، فأضاف معنى جديدًا فى قصيدته السينية :

وكأن الأهرام ميزان فرعون   بيــومٍ على الجبـابر نحْسٍ

وكذلك فى قصيدته النونية :

و أهرام مصر حائط نهضت   به يدُ الدَّهر لا بنيـــان فانينــا

وفى اتجاه الإعجاب بآثارنا أضاف الشاعر المصرى الشيخ محمد عبد المطلب الفخر بها والخيلاء على سائر شعوب العالم .. فيقول :

لنا آية الأهـــرام يتلو قديمهـــا حديثُ الليالى، فهى فى فمها ذكر
ملأنا بهـا دَوْح الوجـــود مناقبـا إذا ما خـــلا عصرٌ تلاها بـــه عصر
وللعلـــم من آثارنـــا فى جبالنـــا على الدهـر آياتٌ بها ننطق الصخر
إذا جهلـوا مينا وخوفـو وخفرعًـا فليس برمسيس على ملكـه نكـرْ
لنا كل مـا فى الأرض من مدنيـــة بها تعمُر الأمصار والبلد القفر

إلا أننا أمام هذا التفاخر والتيه ، لا يسعنا إلا أن نحب رؤية ما تفاخر به محمد عبد المطلب من آثار ، ونسى أن يصف لنا مواطن العظمة التى دفعته إلى ذلك ، قد يقول قائل إنه ليس نسيانا من الشاعر ، بقدر ما هو تعمدّ إخفاء المحاسن زيادة فى التشويق ، ويكفى المشتاق لواعج الحب التى أشعلت فى قلب الشاعر نار الفخر والإعجاب !! ومع ذلك نقول إن الأدب السياحى ، إذا كان يرحّب بمفاخرة ورثة الآثار ، لكنه لا يقبل من عارض سلعة الآثار غرورا أو تعاليا على ضيوف السياحة .

من كل ما عرضناه ، لاحظنا أن التناول الأدبى السياحى لآثارنا الفرعونية ، قد فاز الأهرامات بالنصيب الأوفر ، ولو الْتزمنا الدقة أكثر ، لقلنا إن الهرميْن الأكبر والأوسط على وجه التحديد هما اللذان انْفردا بالإعجاب والوصف والتخيّل والاستنتاج والكشف عن حقيقة الهدف من بنائهما ، أما الهرم الأصغر فلم يرد له ذكر دونما سبب ، اللهم إلا طغيان حجم الأوّلين عليه ، وربما تحكّم خيال الشعراء فى

قصرهما على اثنين ليسهل تشبيههما بالثديين على صدر مصر ، ومن هنا يحق لنا أن نضيف أن اقتطاع جزء من أثر أثار الإعجاب ، لا يبيح تجاهل سائر الأجزاء فى المساحة التى تشغلها هذه الآثار .. لتكون الصورة السياحية مكتملة الأمانة فى نقلها إلى الأدب السياحى ، ويكتفى هنا ولو بالإشارة العابرة .

لهذا نجد القليل من أصحاب الأقلام الذين تناولوا ما جاور الهرمين من آثار مثل شوقى الشاعر فى إبداعه قصيدته الرائية فى أبى الهول :

أبا الهول ، لو لم تكن آية ... لكان وفاؤك إحدى العبر
أطلتَ على الهرمين الوقوف ... كثاكلةٍ لا تريم الحفر
ترجى لبانيهما عودة ... وكيف يعودُ الرَّميمُ النَّخِر
تجوس بعينٍ خلال الديار ... وترمى بأخرى فضاء النَّهر
ومهدَ العلومِ الخطير الجلال ... وعهد الفنون الجليل الخطر
فلا تستبينُ سوى قرية ... أجدّ محاسنها ما اندثر
تكاد لإغراقها فى الجمود ... إذا الأرض دارتِ بها لم تدُر
فهل من يبلّغ عنّا الأصولَ ... بأن الفروع اقتدت بالسِرْ
فلم يبق غيرُك من لم يخفّ ... ولم يبق غيرُك من لم يطرْ
تحرك أبا الهوْل ، هذا الزمان ... تحركَ ما فيه حتى الحجر

وليس الأمر مقصورًا على الأهرام أو أبى الهول ، وإنما سائر ما شُيِّد

على ضفتىْ من جنوبه إلى شماله من تماثيل وهياكل ومقابر ، تنبّه إليها أدباؤنا الأجلاء فتناولها بعضهم بالوصف فقط ، وتحسّر بعضهم على عدم العناية بها ، وتأسّف بعضهم لإقلاق راحة ملوك الفراعنة ونبش قبورهم لعرض مومياواتهم على المتفرجين دون إجلال أو احترام .

أين الأُلَى سجلوا فى الصَّخر سيرتهم
وصغّـروا كلَّ ذى ملك وسُلطـــــان
بـادوا ، وبـادت على آثارهـــم دُوَلٌ
وأدرجـــوا طىَّ أخبـــارٍ وأكفـــان
وخلّفـــوا بعدهـــم حربًا مخلّـــدة
فى الكون ما بين أحجـــار وأزمـــان
وزُحزِحـوا عن بقايا مجدهم ، وسطا
عليهمُ العلم ، ذاك الجاهـل الجـانى
ويلٌ لـه ، هتك الأســتار مقتحمـــا
جــلال أكـــرمِ آثـــار وأعيــــان
للجهـــل أرجحُ منـــه فى جهالتـــه
إذا هُمـــا وُزِنـــا يومًـــا بميـــزان

ومع ما فى اتهام إسماعيل صبرى للعلم وعلماء الآثار من جوْر ،

فكشفَ ستر أولئك الملوك بنبش قبورهم ، وعرضها على الملأ ، ليس فضحًا لهم أو امتهانًا لأجسادهم المسجاة ، إلاّ أننا نقدّر شعور شاعرنا نحو جثث الموْتى وتوفير السكينة لها ، ومع ذلك لا يصح أن نتجاهل جهود هؤلاء العلماء الذين أبرزوا حقيقة أن مصر وأرضها يحتضنان ما يقرب من نصف آثار العالم أجمع ..

ولذلك تدارك شوقى الأمر بما كتبه نثرًا فقال يصف قصر أنس الوجود بأسوان : « الأثر المحتضر ، الذى جمع العبر ، ومحاه الدهر أو كاد ، وكان إحدى آياته الكبرى ، هياكل لفرعون وبطليموس ، توارثها عن الكهنة القسوس ، وصارت للمسيح ، وكانت لهوروس ، ثم ظهر الأذان فيها على الناقوس ، ثم لا تكون عشية أو ضحاها حتى يهوىَ فى الماء كل حجر كان يقبلّ كالأسود، وكل ركن كان يُسْتَلَم كالحطيم».

ويتخيّل أعمدة القصر عذارى أمسكن بأيدى بعضهن خوفا من الغرق فى النيل

قف بتلك القصور فى اليمّ غرقى ممسكًا بعضها من الذُّعْرْ بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضًا سابحات به ، وأبدَيْن بضّا

ومن الصور الجميلة التى صاغها لنا أمير الشعراء ، قبور الفراعنة

التى جعلها لتوافر كل أنواع الطعام وصحافها فيها ، مثل الفنادق الحالية الممتلئة بما لذّ وطاب من صنوف المأكولات والمشروبات ، ورحابتها التى لا تضيق بنزلائها .

للمـوت سـرٌّ تحته ، وجـداره سور على السرِّ الخفىّ ، وخندق
وكأنّ منزلهـم بأعمـاق الثـرى بين المحلّـة والمحلّـة فنـدق
موفـورةٌ تحت الثرى أزوادهـم رحبٌ بهم بين الكهـوف المطبق

ولم يكن ليكتفى باعطائنا هذه الصورة المجانسة بين الحاضر والماضى ، إلا برسم صورة أخرى لما كان يقوم المصريون القدامى من زيارة للقبور والهياكل فى طيبة أو وادى الملوك أو الأشمونين ، كالحجيج بقواربها على صفحة النيل .

وجرت زوارقُ بالحجيج كأنها رُقْطٌ تدافع ، أو سـهام تمرقُ
من شـاطئ فيـه الحياة لشاطئ هـو مضجعٌ للسابقين ، ومرفق

ثم يعود إلى مزج الماضى بالحاضر ، إذ يواصل الزوّار المحدثون حجيجهم إلى هذه القصور الشامخة

وتنادم الأحياء والموتى بهـا فكأنهم فى الدهر لم يتفرقوا

ومن هذه المقابر التى نالت شهرة عالمية وقت اكتشافها ، مقبرة توت عنخ آمون ، لأنها ظلّت من حسن الحظ مخبوءة عن أعين الفضوليين وأيدى العابثين ، فلما توصّل العلم إلى اكتشافها وفتحها ، فبهرت العالم أجمع بمحتوياتها وتابوت الملك الشاب وموميائه .

لهذا تلقف شوقى أيضا هذا الحدث الخالد بالتسجيل والتبجيل

جـــلالُ الملك أيَّـــامٌ ، وتمضى

ولا يمضى جـــلال الخـــالـدين

وقولا للنزيـل : قـــدوم ســـــعد

وحيَّـــا اللهُ مقدمـك اليمينـــا

ســـلام يـــوم وارتْكَ المنايـــا

بواديهـــــا ، ويـــوم ظهـــرتَ

خرجتَ من القبور خروج عيسى

عليـــك جلالـــة فى العالمينـــا

يجـــوب البرقُ باسمك كلَّ سهْل

ويخترق البخــــارُ بـه الحزُونـا

من المؤكد أن أمير الشعراء قد أدرك معنى الخلود الذى كمن فى هذه المقبرة وغيرها من المقابر والهياكل ، فتابعها بقصائده الطوال ، لعلّها تكتسب معنى الخلود منها ، وهذا هو ما أفلح فيه شوقى ، وما يجب أن ينهج بنهجه كل من يريد لأدبه الخلود ، خصوصًا أن وعيه بهذا المعنى لم يلهه عن حاضره ، فزاوج بينهما ، حتى فى قصيدة توت عنخ آمون هذه ، فخاطب توت عنخ آمون مبلغًا :

زمان الفرد يا فرعون ولّى ودالت دولة المتجبّرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعيّة نازلينا

وتتابع أدباء الشعر ، فنسجوا قصائدهم على هذا النهج عندما نقل تمثال رمسيس من البدرشين ليقام فى ميدان بالقرب من محطة مصر ، فقال أحدهم :

من وراء القرون والأجيال عاد، لكن فى صورة التمثال
عاد يزهو فى موكب من فخارٍ صامت القول ناطق الأفعال
فارع الطولِ شامخ الأنف يبدو رائع الفنّ، عبقرى الجمال

فى يديه صحيفة القدر الغالب مكتوبةً بروح النضالِ
من بطون التاريخ ينشر ألوانًا من الزَّهر والنقوش الغوالى
دبّجتْها الأكفّ من شعب مصر صانع المجد فى العصور الخوالى
ساكب الرَّوح فى المعابد والأهرام تجرى مكهرب سيّال
فهو رمز العلا لشعب أبىٍّ بين أقرانه ، عزيز المنال

وشاعر آخر مجيد ، أكثر تمكّنا من أدواته ، فيهنّئ رمسيس بعودته منتصبًا بعد تخلّص مصر من المحتلّ ، ويطلب منه النصح لدفع الخطر المحدق بها من الشرق ، فيقول :

رمسيس ، لوْ فى مصر قبل اليوم نُحت للنظر
لكان أخزاك الذى يلقاك فيها من خوَرْ
وكان رأسك انحنى و كان قلبك انفطر

ورُمْت لو عُدْت إلى الصحراء زهدًا فى الحضَر

هـذا هو المحتل يجلو   بعدمـا فى مصر قرّ

سبعين عامًا عاث فيها ، واسترقّ وهدر

حتى أتـاهـا قــدَرٌ   من جانب الغيب ظهر

فاجتثّ ، واجتثّ ، ونمّى ، وبنى ، ثم عمر

رمسيس، يا سليل « رع »   سل رع يقى مصرَ الخطر

ما زال فى الشــرق لنــا   خصــم كخصمك انتظر

يـا ليتنـــا فى «قـادش»   أخــرى لقينـــاه ، ففــرّ

آثارنا القبطية والإسلامية

لكن آثار مصر القديمة ليست وحدها التى تمتعت بالكتابة عنها ، وإنما شاركها فى هذا القاهرة وأحياؤها القديمة ، ومن ثم منها فى الأدب السياحى آثارها الإسلامية والقبطية ، تلك الآثار الإسلامية والقبطية ، تلك الآثار التى وجدنا من هذه الكتابات ما يكثر لدى المستشرقين والأدباء الروائيين والفنانين الشعبيين ، وغيرهم من الرحّالة .

يكفيك أن تملى ناظريك فى وجهى الجنيه المصرى ، أحد الوجهين زيّن بصور تماثيل فرعونية خالدة ، أما الوجه الآخر من الجنيه فيحمل رمزًا إسلاميًّا شامخًا لأكبر المساجد المملوكية حجمًا ومساحة ، مسجد برقوق المتعدد الأغراض مع تأدية الصلاة ، فهو مدرسة لتعليم المذاهب الأربعة والعلوم الشرعية ، وهو خانقاه لتعبّد الصوفية ، كانوا يبيتون فيه ويأكلون ويشربون مع التفرّغ للعبادة كما لو كانوا فى عكوف دائم ، وهو أيضًا مقبرة لأسرة سلطان مصر الظاهر برقوق ، لقد استغرق بناؤه اثنتى عشرة سنة منذ سبعة قرون ، ولو قصدته لوجدت

واجهته الغربية تعلوها مئذنتان جميلتان ، وفى واجهته الشرقية تربض قبّتان كبيرتان بينهما ثالثة صغيرة فوق المحراب ، ولو تأملت النقوش لوجدتها محفورة فى الحجر خارج القباب بزخارف بنائية وهندسية آية فى الدقة والإبداع ، مما يدل على أنها من عصر المماليك الجراكسة الذين تلوا المماليك البحرية .

معذرة فالعملة الورقية هى التى جعلتنى أتخطى التسلسل التاريخى للآثار الإسلامية فى الأحياء القديمة بمصر القاهرة ، ذلك لأن العملة والحصول عليها عماد الخدمات السياحية ومبتغاها .

القاهرة قبل وجودها

ولنرجع إلى الخلف فى الزمن الغابر لندخل مع من قدموا إلى مصر هذه المواضع التى نُسب كل حىّ منها إلى ما بنى فيها من مساجد ومدارس وقلاع ، بل وفنادق أيضًا .

ندخل القاهرة قبل وجودها ، من عند حصن نابليون جنوبها ، من حيث جاء عمرو بن العاص فاتحًا ومبشرًا ، ووصفها يوم أن جاءها فقال : « تربة مصر غبراء ، وشجرة خضراء ، يخطّ وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان » .

لن نجد لمدن الفسطاط والعسكر والقطائع من آثار غير مسجدى عمرو بن العاص وأحمد بن طولون ، ذلك لأنها طالتها ألسنة الحرائق ، وعوامل البلى التى تزيل ما بنى بطوب اللبن ، وإحلال المساكن والمنشئات الأحدث منها بطوب محروق أو حجارة صمدت لتغييرات الأجواء وتعديلات الحكام والسلاطين ، كذلك بقى بجانب أعرق مسجد فى القارة الأفريقية ، كنيسة أبى سرجة التى اختبأت بقبوها السيدة العذراء ، ووليدها نبى الله عيسى عليه السلام ، وبعد تركهما

لمدينة أون بعين شمس هربًا من الحاكم الرومانى بفلسطين ، فاستراحت العائلة المقدسة تحت الشجرة التى عرفت فيما بعد باسم شجرة العذراء ، حيث حدثت معجزة السيد المسيح بتفجّر عين مياه عذبة ارتوى منها الجميع ، وخلدت الشجرة بهذه الذكرى المقدسة ، حتى الآن ، وهى قائمة فى كنيسة العذراء بحىّ المطرية التى انتقل منها موكب العائلة المقدسة إلى الجنوب فى موضع كنيسة أبى سرجة .

ولما كان الشىء بالشىء يذكر ، فلقد عثرت على سطور كتبها الأديب المصرى حفنى ناصف ، بحث بها عن أصل اسم قريته « الحفنى » فاكتشف وجودها بجوار أثر عزيز آخر فى أراضى الأشمونين بالمنيا ، البيت الذى عاشت فيه السيدة مارية القبطية التى أهداها المقوقس عظيم القبط فى مصر إلى سيدنا محمد ﷺ ، فقبل الإهداء وتزوجها ثم أنجب منها إبراهيم الذى توفّى بعد ثمانية عشر شهرا ، فكتب يقول : « قال الإدريسى : هذه المدينة هى مدينة السحرة التى جلب منها كل ساحر عليم لمغالبة موسى عليه السلام » ... « وقد اهتم بهذه القرية أجلاء الصحابة والتابعين ، فقد اشترط الحسن بن علىّ رضى الله عنه على معاوية فى ضمن ما اشترط ، أن يعفى هذه القرية (حفن) من الخراج فأعفاها معاوية من الخراج ، ولما قدم إلى مصر عبادة بن الصامت أيام عمرو بن العاص ، وتولّى بعض الأعمال بها ، بحث عن هذه القرية وبنى بها مسجدًا يعرف

للآن باسم مسجد سيدى عبادة ، والذى كنت أتعب نفسى فى التنقيب عليه وجدته مشهورًا عند أهل هذه القرية ، فإنهم يعرفون أن الأطلال التى بجانبها هى أطلال أنصنا ، وأن قريتهم (الشيخ عبادة) هذه موقع قرية حفين ، ويقولون إن المسجد الذى بناه عبادة بن الصامت فى موضع بيت مارية سريّة النبى ﷺ . فانبهرت من معلومات أهل هذه القرية وجهلى أنا قبل أن أبحث هذا البحث ، وقلت لنفسى : « أهل البيت أدرى بالذى فيه » .

ومن اتفاق الغرائب التاريخية لآثار مصر ، أن الحديث عن سحرة فرعون موسى ، يضطرنا إلى القفز ثانية إلى جنوب الأحياء القديمة للقاهرة ، مصر القديمة ، إذ نجد أثرًا يعتز أتباع الديانة الموسوية باحتوائه وزيارته ، حيث معبد مقام عند مكان إلقاء أم موسى بابنها النبى فى صندوق بالنيل إنقاذًا له من قرار فرعون مصر بقتل أبناء هذه الطائفة تأمينًا لملكه !! ورسا الصندوق كما هو معروف بالقرب من قصر فرعون شرق النيل ، ورفض الوليد أن يرضع فى قصره إلا بمن أشارت عليهم أخته ، وتفد الأم إلى قصر فرعون لتحتضنه عائدة به إلى مسقط رأسه ترضعه .

أى أن الشطّ الغربى لنيل مصر القديمة قد زخر بآثار ذكريات دينية خالدة ، اعتزّ بها أبناء مصر فضلاً عن أتباع الديانات الثلاث خارج مصر وأجيالهم السائحين .

ثم جاء الفاطميون إلى مصر ، واستقرّوا بدولتهم بعد أن أنشأ قائدهم جوهر الصقلّى القاهرة لمقامهم ، وطوال المائتى سنة التى بقوها بيننا ، اتسعت القاهرة باتساع الدولة الإسلامية شرقًا وغربًا ، وربطت بين آثار الجنوب فى مصر القديمة وبين آثار الشمال فى عين شمس والمطرية ، فكانت أداة الربط سلسلة من المآذن الإسلامية تعدّت الألف مئذنة ، مما يوحى بالمساحات الفسيحة التى شغلتها المساجد المتنوعة الطراز ، تبعا لأرومة السلاطين الذين تتابعوا علي حكم مصر وتنافسوا فى هذا المضمار - بناء المساجد - كلّ حسب الدافع الحقيقى لما بناه .

وإذا كان حق للفراعنة أن يتباهوا بالأهرام وأبى الهول كعجائب عالمية مُعجزة ، فمن حق أبناء مصر أن يختالوا ببناء مسجد واحد طاول الهرم فى شموخه وعظمته وإعجازه .. ألا وهو مسجد السلطان حسن بن محمد بن المنصور قلاوون .. وإن كان الهرم الأكبر قد استغرق بناؤه عشرين سنة ، فقد استغرق تشييده نصفها ، اسمع معى الورتيلانى ذلك الرحّالة المغربى الذى زار مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى وهو يقول فيه :

« إنه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد فى فخامة البناء وارتفاعه وإحكامه ، وإتساع حناياه وسعة أبوابه ، كأنها جبال منحوتة ، تصفق الرياح فى أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل فى شواهق

الجبال ، وفى أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من إيوان كسرى ، وفيها نقوش عجيبة » .

نعم فيه نقوش عجيبة ، سواء المنقوش منها على الحجر أو الرخام أو الخشب ، أو المحفور منها على النحاس المكفّت بالذهب أو الفضة ، أو المرسوم منها على الزجاج المموّه بالمينا ، جعلت المسجد بحق أروع العمارات الإسلامية ، وآية فنية فى جمالها وجلالها لا مثيل لها فى الشرق قاطبة .

وهذا أيضًا ما شهد به المقريزى بقوله : « لا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع ، وقبته لم يبق بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها » .

تعال بنا ندخل هذا البناء الشامخ ، هيا اخلع نعليك أو البس خفيّن بقدميك ، واخطُ معى أولى الخطوات اليمنى ، تقدّم لنقف فى الصحن المكشوف ، ها هى القبة الخشبية التى تظلل فسقية الميضأة محور الصحن ، وأينما التفتّ تجدحولك أربعة إيوانات متعددة الأضلاع ، كانت فى البداية مدارس للمذاهب الأربعة ، وكل مدرسة من تلك المدارس تتكون من إيوان وصحن تتوسطه فسقية أخرى ، وكانت تعلو كل مدرسة فيها منارة ، تهدمت منها اثنتان ، وظلّت الأخريان تطاولان قلعة الجبل أمامها بالميدان ، بينما تفصلهما من الواجهة الشرقية قبة ضخمة ، وربما أوحى هذا البناء الضخم لبعض المماليك أن يتخذوا

منه حصنًا يتحصّنون به عندما يقاومون سلطانًا جديدًا فى قلعة الجبل ، مما تسبب فى إصابة أجزاء منه ، ونهب بعض فرشه وقناديله ومشكاواته ، لكن ما بقى ظلّ كافيًا للمباهاة به بين درر العمائر ، كما ظلّت رسالته الخالدة تمارس فيه .. الصلاة وتحفيظ القرآن والتدرّب على الخط العربى الجميل وتدريس العلوم الشرعية ، على مساحة فدانين اثنين .

ولم يقتصر الوافدون من الرحالة القدامى العرب على الورتلانى والمقريزى ، وإنما جاء أيضًا المقدسى وابن حوقل وابن دقماق والعسقلانى وأبو شامة المقدسى فضلاً عن ابن خلدون والرحالة الفارسى ناصر خسرو ، كما جاء من الفرنجة كثيرون من بينهم غليوم رئيس أساقفة الحروب الصليبية ، وجوستاف شامبرجه ولين بول وكريزويل وماسبرو ، وكثيرون غيرهم جاءوا إلى مصر ينتهلون من معين حضارتها وآثارها .

أى أن القدوم إلى مصر بدأ منذ أقدم العصور ، وكان المصريون دائمى الترحيب بهم ، وإبداء كل مظاهر الكرم لهم ، سواء كانوا مسلمين يعايشوهم أو أهل كتاب يباسطوهم .

لذلك فإن كلاً منهم تبارى فى وصف ما رأى ، وتمجيد ما انبهر به من رؤى ، ولوم الأيدى التى عبثت بها أو عجزت عن صونها ، فكان لمصر النصيب الأوفى من الوصف والترحال إليها ، ومن ثم صارت أحقّ من غيرها فى تقديم هذا الأدب السياحى .

الجامع الأزهر وأحياؤه

ويأتى الجامع الأزهر على قمّة ما حازته الآثار الإسلامية من ذكر وتوصيف ، ومتابعة على مرّ الدهور من جوْر عليه أو إضافة إليه ، حتى استقرت أوصافه ، باتساع أعطافه ، فإذا أردت أن تتسم عبير ماضيه فى عهد إنشائه ، اذهب إلى متحف الفن الإسلامى لترى بابًا من الخشب التركى ذا مصراعين ، فى كل مصراع سبع حشوات مستطيلة ، تتضمن العليا منها كتابات كوفية مورقة ، نقشت بالحفر البارز ، نصها : « مولانا أمير المؤمنين ، الحاكم بأمر الله ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه » أما بقية الحشوات فيعلوها زخارف نباتية محفورة حفرًا عميقًا ، وإذا ما دققت النظر قليلاً ، علت وجهك ابتسامة غامضة ، لأن الحشوات المكتوبة عليه قد قلبت ، لا تضحك عاليًا فجلّ من لا يسهو ، لقد حدث ذلك عند إصلاحها وإعادة تركيبها !!

كذلك ترى فى المتحف محرابًا من الخشب المنقوشى ، يعلوه لوح نقشت عليه كتابات تذكارية بالخط الكوفى المورق ، مفادها أنه صنع برسم الجامع الأزهر فى زمن الخليفة الآمر سنة ٥١٩ هـ ..

أمّا إن أردت العثور على البقايا الفاطمية فى الجامع نفسه منذ عهد جوهر الصقلى بانيه ، فلندلف سويا إلى داخله ، لنرى عقود المجاز الأربعة الأولى من الجانبين وقد امتلأت بزخارف وكتابات كوفية ، وحول الشبابيك الجصية المتبقية فى جوانب ثلاثة من الجامع شرقية وغربية وجنوبية عند رواق القبلة ، كذلك نرى المحراب الكبير الأصلى بكتاباته ونقوشه ، وزخارف وكتابات أخرى على مؤخر الجامع من داخل رواق القبلة ، وأيضًا القبة التى تقع على رأس المجاز من جهة الصحن من عصر الخليفة الحافظ لدين الله .

يبقى ما نراه الآن من تعديلات وتغييرات بعد أفول نجم الدولة الفاطمية ، وإيقاف صلاة الجمعة به ما يقرب من القرن ، جارت عليه خلاله أيدى العبث والاغتصاب ، حتى حلّ عصر السلطان الظاهر بيبرس ، الذى أمرَ بردّ كل ما اغتصب من ساحة الأزهر من أراضى . وإصلاح وإعمار كل ما وهى من سقوفه وجدرانه وأركانه ، وصنع له منبرًا ، وكسا الجامع بالفرش ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة ثانية منذ سنة ٦٦٥ هـ .

ومنذ هذا التاريخ أخذ الجامع يتزايد أمره ، فلم يعد يقتصر التدريس على مذهب دون غيره ، وإنما زاد ليضمّ سائر علماء الفقه بمختلف مذاهبه ، وتعددت نوبات الإعمار فيه حتى بلغت ثلاثة وعشرين إعمارًا على مدى عشرة قرون (منهما إعماران بسبب زلزالين فى عامى

٧٠٢ هـ ، ١٢٢٩ هـ .) إلى أن استقر على ما هو عليه الآن من رواقين يمثلان حرم الأزهر الشرقى ، رواق كبير يلى الصحن وهو الأقدم ، ويمتد باب الشوام إلى رواق الشراقوة ، ورواق آخر أحدث يلى الأول ، ويرتفع عنه بعدة درجات ، ويتميّز سقف الرواقين بدقة صنع خشبه ، وارتكاز عقودهما على عمد من الرخام الأبيض ، يزيد عددها على ٣٨٠ عمودًا ، جلبت تيجانها من المعابد والكنائس القديمة التى كانت منتشرة فى الجيزة وأبى صير وسقارة وميدوم والفيوم وغيرها . إننى الآن أسمع أذان الظهر ، وحانت الصلاة ، هيّا نلحق صلاة الجماعة ، وها هى جماعة كبيرة أخرى من السياح الأجانب ، تقف فى صمت منتظرة فراغنا من الصلاة ، يا لله ، كلها بيوت الله ، الله أكبر ، ..

ها هى أروقة الجامع باسم الله ما شاء الله قد زادت فبلغت تسعة وعشرين رواقًا ، فى حرميه الشرقى والغربى ، وبلغت المحاريب ثلاثة عشر محرابًا ، بالإضافة إلى محاريب المدارس الملحقة بالجامع ، كما بلغت المآذن السامقة فوق جدرانه خمس مآذن ، ومن ثم فلو أحصيت عدد الحارات التى تتخلله لوجدتها أربع عشرة حارة ..

كلها تزدحم بالمساجد والآثار الإسلامية ، فتتكون منها كتلة ثمينة نادرة من الدُّررَ المقدسة ، لكن الأمر لم يقتصر فى حىّ الأزهر الشريف على هذه المساجد العتيقة ، وإنما تجد بنايات أثرية أخرى ، تعتبر فى نظر الخدمات السياحية سبقًا فريدًا فى دنيا الفندقة ، وأعنى على رأس

البنايات وكالتى الغورى والخليلى ، إذ أن النشاط التجارى الذى ساد مصر فى عهود المماليك فأنعش الحالة الاقتصادية فيها ، دفع بسلاطينهم إلى بناء أسواق يلتقى فيها التجار القادمون من الشرق والغرب ، وأيضا تشييد دور لسكناهم بجانب هذه الأسواق مدة إقامتهم بمصر ، ولا يزال باقيا منها حتى الآن خان الخليلى وخان الحمزاوى وخان جعفر ، ووكالة الغورى ووكالة قوصون ، والنحاسين والسكرية ، والخيمية والفحامين وسوق السلاح ، وبالطبع كان من المتوقع أن تصبح مصر قبلة التجار من كل أنحاء العالم كافة ، مما صار محتمًا إيجاد أماكن لسكناهم بالقرب من الأسواق مجال نشاطهم التجارى .

ولحسن الحظ أن تنبّهت الأجهزة الحكومية المختصة بالآثار ، ترميم وتجديد وكالة الغورى ، التى تقع جنوب غربى الجامع الأزهر بشارع التبليطة ، وهى تتألف من صحن أوسط مكشوف ، تحيط به المخازن التى تشغل الدور الأرضى ، وتعلوها المساكن الصغيرة كطوابق علوية ، ولا تزال الوكالة محتفظة بأغلب تفاصيلها المعمارية والزخرفية ، ومشربيات يطل بعضها على صحن الوكالة ، والبعض الآخر يطلّ على الشارع ، ومما تجدر ملاحظته أن درجات سلم الطوابق الثانية فى الثمان والعشرين مسكنًا ، لا توجد داخل الوكالة ، وإنما من باب خارجى مستقل ، مما يشعر التاجر الوافد براحة استقلالية فى منامته ، وهذا فى حدّ ذاته وعى فندقى متقدم سبق به المماليك الجراكسة

التصميمات الفندقية الحديثة ، أمّا فى الصحن الذى تتوسطه فسقية أنقة ، وفعلى محيطه بواكٍ لعرض السلع ، ونرى فى طرف الصحن باب يؤدى إلى دهليز به دورات للمياه ، ومن هذا الدهليز نصل إلى فناء آخر صغير مكشوف لربط دواب التجار وحيواناتهم ، كحظيرة أو بلغة العصر جراج مركبات النزلاء .

وعلى هذا النمط كانت مصممة سائر الوكالات والخانات التى ذكرتها ، حتى إنك وأنت سائر فى شارع التبليطة هذا ، تجد على الجانبين وقد تراصت هذه المنشئات فى نشاط وحركة دائبة ، نعم قد علاها القِدم بالغبار والتهدّمات ، لكنك لو دققت النظر فيما بقى سليمًا من هذه الجدران لوجدت زخارف من أعظم زخارف الحفر على الحجر منذ أيام ، أولئك المماليك الجراكسة ، منها ما يحيط بسبيل قديم ، ومنها ما يضمّ مدرسة للصغار أو الكبار على السواء ، ومنها ما يلفّ بين جنباته كتابات بخطوط جميلة ، تثبت مناسبة وتؤكد تبعية لسلطان جار عليه البلى .

لا نريد أن نمكث فى هذا الحىّ طويلا ، وليس من السهل أن نمتلك إرادتنا فى حىّ الأزهر ، فلابدّ أن تطلّ على وعى بخطوط سيرنا فى أحياء القاهرة ، لئلا يشدّ أحدها انتباهنا أو يسلبنا إرادتنا ، فيسرقنا الوقت قبل أن نتجوّل فى أكبر عدد من هذه الأحياء العتيقة ، ذلك لأن الأزهر حىّ متشعّب الأحياء والامتدادات ، وإذا كانت قاهرة

المعزّ لم يبق من قصريْها الغربى والشرقى شىء ، إلا أن كثيرا من بنايات هذه الأحياء المتشعبة مقام من أخشاب القصرين البائدين ، ويحتوى كثير منها على نقوش تمثل حفلات رقص وطرب ، وحلبات قنص وصيد وطيور وحيوانات ، تحكى كلها ما كان يدور فى هذا الحىّ العريق من حياة فاطمية زاهرة ، ومن ثم نجد الديار التى بنيت على فتات قصرى الخلفاء الفاطميين ، متناثرة فى الجمالية والقلعة وباب الشعرية والخرنفش أو بالأصح . الخرشتف الذى كانت مقامة فيه اصطبلات وطواحين وحمامات الخليفة الفاطمى المعزّ لدين الله ، وكذلك أحياء الظاهر والحسينية والعباسية وكذلك حىّ الخانقاه أو الخانكة كما نسميها الآن .

ومن الطريف أن حىّ العباسية كان اسمه أرض الطبّالة ، نسبة إلى السيدة نَسبَ طبّالة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، التى أنشدت وهى واقفة تحت قصر الخلافة ومعها بطانتها فقالت

يا بنى العبـاس ردّوا   ملك الأمــر معــد
ملككم مَلك معـار   والعـــوارى تستردّ

والمناسبة السعيدة التى جعلتها تنشد هكذا ، هى إمداد المستنصر للأمير البسا سيرى الذى خرج على الخليفة العبّاسى القائم بأمر الله ، إمداده بالجيش والزاد والعتاد حتى غلب الخليفة واستولى على بغداد وقصر الخلافة ، وأزال دولة بنى العباس ، وأقام الدولة الفاطمية هناك ،

وأرسل كل تحف القصر والغنائم النفيسة إلى القاهرة ، مما أدخل الفرحة الشاملة على قلب المستنصر وابتهج أهل مصر ، فزينت القاهرة بهذا النصر وأنشدت الطبالة نشيدها .. فأعجب الخليفة الفاطمي بها أيما إعجاب ، وعرض عليها أن تطلب تحقيق أمنية لها ، فطلبت أن يقطعها الأرض المجاورة للمقس ، فأجابها لطلبها وسمّيت على اسم حرفتها ، فصارت أرض الطبالة ، وازدهرت وعمرت بالبيوت حيناً ، ثم هجرت وخربت حيناً آخر تبعا لتغير وجهات العمران عند الحكّام ، إلى أن تولىّ عباس باشا الأول حكم مصر عام ١٨٤٩ ، فأنشأ ثكنات الجيش المصرى فيها ، مما شجع الأهالى على بناء دور سكناهم فيها ، وعرفت باسم العباسية أمّا حىّ الخانكة ، فيكفى أن تسمع ما حكاه المقريزى لنا من قصة إنشائه ، إذ قال : كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من عادته أن يخرج للصيد فى الأحراش والميدان الذى أنشأه حول بركة الجب بمنطقة سرياقوس شمال القاهرة ، واتفق أن ركب على عادته للصيد هناك ، فلما وصل إلى منطقة سرياقوس ، أحسّ بألم شديد فى جوفه كاد يأتى عليه ، وهو يتجلد ويكتم ما به ، حتى عجز عن احتمال الألم ، فنزل عن الفرس والألم يتزايد عليه ، فنذر لله إن عافاه ليبنينّ فى هذا الموضع مكاناً يعبد فيه الله ، ثم عاد إلى قلعة الجبل ، فلزم الفراش عدة أيام ، ولمّا عوفى ركب بنفسه ومعه عدد من المهندسين ، وخطّ على بعد ميل من ناحية سرياقوس هذه الخانقاه ، وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى ، وبنى بجانبها مسجداً تقام به صلاة الجمعة ، وبنى بها حمّاماً ومطبخاً ، ولما تم بناء الخانقاه سنة ٧٢٥ هـ

خرج بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانق ، ومدّت الأسمطة داخل الخانقاه ، وخلع السلطان الخلع على الأمراء وأرباب الوظائف ، وفرّق بها ستّين ألف درهم فضة ، ومنذ ذلك الحين رغب الناس فى السكنى حول هذه الخانقاه ، وبنوا الدور والحوانيت والخانات حتى صارت بلدة كبيرة بخانقاه سرياقوس .

أمّا الآن فقد بادت الخانقاه ، وحلّت محلّها مستشفى للأمراض العقلية ، وصارت المنطقة حولها معروفة باسم الخانكة أو الخانقاه .

ومما يجتذب نظر السائح الباحث فى تاريخ أحياء القاهرة القديمة ، أنها كانت بركًا فى البداية ، وجادت عليها فيضانات النيل الطمى سنويًّا ، فعلَت قيعانها حتى تساوت بما حولها من أراض ، أو أهملها الأهالى بإلقاء مخلفاتهم فيها حتى جفّت ، وسواء كان هذا أو ذاك ، فإن الاتساع المتزايد للأرض استوعب الزيادة السكانية المقيمة فى القاهرة أو الوافدة عليها من خارج مصر عامة ، من هذه الأحياء الأزبكية والفجالة وباب الحديد ، والسيدة زينب وبركة الفيل وباب اللوق .

ومن الطريف أن حىّ السيدة زينب مقام على بركة السباعين بالقرب من بركة الفيل ، حيث تستمد ماءها من الأولى ، وكان لمناظرها الجميلة والبساتين حولها فضلاً عن مسجد أحمد بن طولون تأثيرًا فى نفوس الأدباء والشعراء ، مما ألهم ابن سعيد فقال : « وَأُعْجَب فى ظاهر القاهرة ببركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم

وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرح أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم ، فيكون بذلك منظر عجيب .

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت بهـا المناظـر كالأهـداب للبصر
كأنمـا هى والأبصـار ترمقها كواكـب قد أداروهـا على القمـر

وتعجب شاعر لحظة الشروق على سطح البركة .. فأنشد قائلاً :

انظر إلى بركة الفيل التى نحرت لهـا الغزالـة نحرًا من مطالعهـا
وخلّ طرفـك محفوفـًا ببهجتها تهيـم وجْدًا وحبًّا فى بدائعهـا

لكن الأدباء والشعراء لم يكونوا ليعرفوا خبر الكنز الأثرى الذى كان مطمورًا بجوارها فى شارع قلعة الكبش ، حيث عثر على حوض من الحجر الصوان الأسود فى فجوة متسعة له ، وكما يبدو أنه كان موضوعا للشرب منه ، وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، قدّر علماؤها ما يساويه من قيمة أثرية ، فاستولوا عليه وحاولوا نقله إلى باريس ، فقابلهم الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط ، واستولى رجاله على الحوض المرصود هذا ، ونقلوه إلى لندن ليقبع فى حجرة منفردة بمتحف لندن ، ولم يبق من الحوض بمصر غير اسمه الذى أطلق على شارع « الحوض المرصود » ببركة الفيل .

كل هذه أقاصيص تصلح موضوعات للأدب السياحى ، لأنها فضلاً عمّا لا تخلو منه من طرافة ، فهى أيضًا تتضمن معلومات حقيقية تزيد القادم إحاطة بما يودّ مشاهدته .

ومن هذه القصص ما خلا من الطرافة ، لكنه امتلأ عاطفة وفاض بالتعاطف معها ، ومن أبرز قصص هذا النوع الشائق واحدة لحبيب جاماتى فى الكنيسة المعلقة ، تلك التى سبق ذكرها حيث بنيت على أنقاض برج من أبراج حصن بابليون بمصر القديمة ، لذا فإنها بدت بارتفاعها عما يجاورها من مبان عتيقة كأنها معلقة فى الهواء ، لكن من يقترب منها ليصل إليها ، لابدّ أن يخترق دروبًا ومنعطفات ضيّقة ..

ففى أيام الحملة الفرنسية على مصر ، حدث أن رجع قائدها نابليون إلى فرنسا ، وحلّ محلّه كليبير ، فكان مختلفًا كل الاختلاف عن سلفه فى سياسته وأعمال القمع التى سلكها مع أهل مصر ، ممّا أثار عليه ثائرتهم ، فثاروا عليه أثناء معركته مع الجيش التركى الذى قدم لإخراجه من مصر ، وما لبث أن هزمه عند عين شمس ، ثم التفت إلى أهل مصر ليقضى على ثورتهم فى القاهرة ، ومن واقع مخطوط عثر عليه المؤلف من ملفّات متحف بونابرت الذى أنشىء بالقاهرة ثم تفرقت محتوياته ، حكى لنا ما تضمنته أوراقه التسعة من أحداث صوّرت تذمّر قادة كليبير من سياسته الخرقاء التى أفقدت الفرنسيين القدر الضئيل الذى كانوا حققوه من حب المصريين لهم !!

« فقد تمكنّ السيد عمر مكرم من عودته متزعّمًا الثوّار ، تمكن من إقناع زعماء الأقباط بأن يشتركوا مع المسلمين فى هذه الثورة ، ففعلوا ، ولم يبق منهم على ولائه للفرنسيين غير « المعلم يعقوب »

الذى اشتهر باسم « جنرال » ، ويعقد زعماء الأقباط اجتماعاتهم فى بيت « المعلم جرجس الجوهرى » حيث يضعون الخطط المشتركة بينهم وبين « مكرم والمحروقى والبشتيلى » للقضاء على الحامية الفرنسية قبل أن تصل إليها لأمداد من خارج العاصمة » .

ظل أهل القاهرة كلهم يقاومون رجال الحامية ، ويهاجمونهم أينما كانوا ، فى الشوارع والأزقة ، فى دورهم حتى فى قصر الألفى نفسه الذى كانوا اتخذوه مقرًّا لقيادتهم ، واشتدّ القتال على وجه الخصوص فى بولاق ومصر القديمة والخرنفش وحول الأزهر ، ورجحت كفّة الحامية المدجّجة بالسلاح الذى يفتقر إليه الأهالى ، بعد أن استمرّت المقاومة عشرة أيام ..

وفى يوم من تلك الأيام العشرة الخالدة ، كانت فصيلة الرمّاة المكلفة بإخماد الثورة فى حىّ مصر القديمة قد حوصرت ، وتشتت رجالها ، فهرب من هرب وقتل من قتل ، حتى قائدهم فليبير لم يعثر له على أثر ، وقال أحد جنود الفصيلة إنه شاهد المصريين يحملونه وهو جريح ، واختفوا به بين البيوت القديمة ، ومن ثم جنّ جنون جنود النجدة التى دُفع بهم لإنقاذه . فجدّوا فى البحث عنه وعن بقية المفقودين فى الطرقات الضيقة الموحلة ، حتى اقتربت مجموعة منهم من الكنيسة المعلقة حيث احتشد جمع من المصريين ، فأطلق الجنود النار عليهم ، وعملوا فيهم بالقتل بحراب البنادق ، فتسلل منهم خلف الجدران من استطاع الاختفاء ، إلا خمسة منهم ، ظلوا واقفين مرتبكين أمام دكان

صغير ، وما لبثوا أن رفعوا أيديهم بالاستسلام حين اقتربنا ، لكن المفاجأة التي أدهشت الجنود ، هي خروج قائد الفصيلة المفقود من الدكان وهو يسبّهم صائحًا : « أنتم أيها القتلة المجرمون » ، وشهر سيفه ثم أغمده في صدره وسقط على الأرض لتوّه والدم يسيل منه بغزارة !! فأسقط في أيدي الجنود لهوْل المفاجأة المؤسفة . وتعالى الهمس ، لتعلن الحقيقة المشوهة ، وهي أن هذا القائد المنتحر كان قد أصيب في جنبه أثناء حصار فصيلته ، فحمله ثلاثة من المصريين هم الحوذي أحمد المنباري ، والطباخ شلبي يعقوب وأخته الفتاة أميرة ، وكانوا يعملون من قبل في قصر القائد العام كليبير ، ثم طردهم منه ، حملوا الجريح إلى الكنيسة المعلقة ، حيث عولج وبقي للاستشفاء فيها عدة أيام ، إلى أن استطاع النهوض على قدميه ، فسانده الثلاثة ليخرجوه من مصر القديمة ، لكن الثوار قابلوهم ، ومنعوا مرورهم ، فاستبقوه معهم في دكانتهم الصغيرة لانتهاز فرصة أخرى ينقذوه فيها ، لكن الجنود الذي قدموا للنجدة ، دفعتهم رعونتهم إلى إطلاق الرصاص والطعن بالحراب، فقتلوا شلبي وأخته ، ولم يجد فليبير الحزين مناصًا غير الانتحار .

واكتملت المأساة بعد معرفة الحقيقة بوقوف الجنود صفًا ليؤدوا التحية العسكرية للفتاة وأخيها ، وتوجهوا بالجثث إلى الكنيسة ليصلّي الرهبان عليها ، بينما اختلط شبانُ الحيّ مسلمون وأقباط خاشعين .

تراثنا الشعبى
منذ العقائد الفرعونية

لا يغيب عن ناظرى التجمعات الحافلة حول منشدى السير الشعبية ، بفرقهم الموسيقية الشعبية العريقة فى سهرات رمضان بحىّ الحسين والأزهر ، وما يصاحب ذلك من ترديدات ورقصات بسيطة معبّرة عن بيئات وفدت منها إلى هذا الملتقى ، فتخلق أنواعا من التجاوبات والمشاعر المتلاحمة .

وكان مما يثير الدهشة رؤيتى لأجانب يخالطون هذه الجموع الحاضرة ، يشاركونهم بالتصفيق حينا ، وبترديد بعض الكلمات أحيانًا أخرى ، وبالتقاط صور تذكارية لهذه المشاهد دائمًا . كما لا أنسى الصور التى نشرتها صحفنا لمغنّينا الشعبى قناوى ، وهو فى باريس يعرض قدراته الصوتية وكفاءته العزفية بالربابة فوق رأسه تارة ، وعلى كتفه تارة أخرى، وعلى صدره وبطنه كثيرًا، بينما يسرد سيرة من سيرنا الشعبية .

وكيف أشادت الصحف الفرنسية بهذا البطل الشعبى ، الذى تمثلوه بطل السير التى يحكيها ، لا مجرّد مؤدّ لها ، فانتزع الإعجاب وفاز

بالتفاف المشاهدين حوله هناك . أكّد لى كل هذا امكان نجاح هذا اللون في استرضاء السائحين ، واستمرار وفودهم إلينا ، واكتساب موضع أصيل بين مستحدثات الجذب السياحى .

وهنا سؤال يفرض نفسه علينا ، ألم تزاحم وسائل الإعلام كالإذاعة والتليفزيون والشرائط عمومًا بأغانيها الموضوعة وألحانها المتكاثرة ؟ ألم يزاحم كل هذا المساحة الصغيرة المتاحة لفنوننا الشعبية ؟ ، لقد كنت ألمح هذا فى الريف ، حيث الفتيات فى أعيادنا وأفراحنا ، لم تعدْن تردّدن أغانى الريف ولا أهازيج هذه المناسبات ، وإنما الأخطر من هذا كنّ يتنافسن فى تجويد ما سمعته من أغانى وسائل الإعلام المؤلفة حديثًا .

إن الانسياق وراء التقليد لكل مستحدث ، لا غضاضة فيه ، والوقوف أمامه لا جدوى منه ، لأنه يحدث بحكم التطوّر أولاً ، وبحكم البريق الذى يصحب كل جديد ثانيًا ، وبحكم الرغبة الملحّة فى تقليد التقاليع أولاً وأخيرًا .

لكن ما يجب أن نطمئن إليه هو عجز الجديد عن الجور على العتيق أو محْود ، لأن كل موروث قد اكتسب الثقة فى أصالته بحكم تسليم الأجيال المتعاقبة به ، وتناقله حتى بعلاته ، وإذا ما كان هناك من إضافات ، فإنما هى خاضعة لسياق الموروث .

وبنفس القدر ، تقليد المستحدث ، يخضع لهذا السياق ، لهذا الذوق

السائد ، لهذا المنطق المحلّ ، حتى لو كان منطقًا مقلوبًا !! ومن هذا استمدّ كل موروث قوّته ، فهو ليس مغلقًا على ماضى نشأته الطفولية ، وإنما يتفتح لكل إضافة متّسقة مع قدرات نموّه وإدراكه وذوقه ، وعلى ألا يخالف أو يلتوى عن عموده الفقرى الذى شبّ عليه منذ مولده . إننا لا نستطيع – على سبيل المثال – أن نجبر مجتمعًا جديدًا ، أو حتى سياحًا وافدين ، على الاقتناع بأن خيال الظل هو التليفزيون ، أو على الأقل هو الأصل فى فكرة التلفزة !! وكذلك الأمر لا ندّعى انتماءه إلى دار السينما أو الخيالة ، كما تواضع على تسميتها أرباب اللغة العربية ، فتصبح منتمية إلى خيال الظلّ ، لمجرد اشتراكهما فى جذور اللفظة خيل وخيال وخيالة .

لكننا نستدرك ونقول ، إن لم يكن خيال الظلّ هذا ، الذى نشأ فى الشرق الأقصى ، ثم امتدّ إلى فارس متزوّدًا بالسائد فيها من ذوق ، ثم واصل امتداده للتغلغل فى الحياة الإسلامية لأن الطبقات الوسطى هى التى أسهمت فى إثرائه ، حتى استقر آخر مطافه فى القاهرة وازدهر ، فنفذ إلى ربوع العالم الغربى ، إن لم يكن خيال الظل قد وجد أرضًا خصبة لاستمراره وازدهاره ، ما كان استطاع البقاء فى مجتمعات بعينها دون غيرها ، وأقول دون غيرها ، فالحق يقال : إن اليونان والرومان قديمًا لم يعرفوا خيال الظل ، مما دفع بالباحثين فى هذا الفن إلى استنتاج نظرية أن خيال الظلّ يزدهر لدى الأجيال التى

لم تجد فى فنونها الرسمية ولا فى آدابها ما يشبع حاجاتها الوجدانية ، ربما لأنها تجمدت فى ما يشبه القوالب المصبوبة ، أو تفضّل تغليب العقل النظرى على صدق المكابدة أو التجربة الذاتية ، فانفض حيلها عنها وانكمش فى لهجاته وتهيئاته ووسائله ، وربما يكون ازدهار خيال الظل منذ العصر الفاطمى فى مصر دليلاً على صحة هذه النظرة ، لهذا يحسن أن نسمع ما أنشده وجيه الدين ضياء بن عبد الكريم فى مصر القرن السابع الهجرى .. فقال :

رأيت خيـال الظـل أعظم عـبرة ... لمـن كان فى علـم الحقائـق راقى
شخوصًا وأصواتًا يخالف بعضها ... بعضًـا وأشـكالاً بغـير وفـاق
تجيء وتمضى بابـة بعد بابـة ... وتفنى جميعًـا والمحـرك بـاقـى

إن ما يهمنا من هذا الاستطراد ، هو الكفّ عن محاولات اللصق بين هذه الأصول الشعبية وبين الوسائل المستحدثة لتوصيل هذه الأصول ، وفى النصف الأخير من نظم وجيه الدين « وتفنى جميعا والمحرك باقى » ما يوحى بحقيقة ما نرمى إليه ، فالمحرّك لخيال الظل ولسائر الآداب الشعبية هو كل جيل وراء جيل ، فى ابتداعه وفى تحسين ما أحَسّ به من نقص فى اكتمال إعجابه وارتياحه له ، فيحرّك موروثه إلى المستوى الذى يرتضيه ، بالارتفاع أو الانخفاض حسبما آل إليه كل جيل من ظروف .

من هذا يمكن القول بأن الآداب الشعبية هى متاحف الشعوب ،

التى تغرى بالاطلاع والمشاهدة ، وتجذب إليها الغرباء والمواطنين على السواء ، ويكفى أن تنطق اسم « ألف ليلة وليلة » أمام جمع من أولئك أو من هؤلاء ، حتى تسلمهم إلى خيالاتها القصصية الثرية ، ودفعت بأشهر مخرجى المسرح والسينما إلى الاستعانة بها فى إبراز مهاراتهم لتحقيق الخيال .. سواء كان خاتم سليمان ، أو الشاطر حسن ، أو على بابا أو حتى معروف الاسكافى ، وجحا ومصباح علاء الدين ، وغير ذلك من مضامين موغلة فى الخيال .

لهذا نعود إلى موضوعنا فى الأدب السياحى ، إنه يعتمد على تجسيد مثل هذه الشطحات المبهرة ، وهذه اللفتات الذكية ، بالوسائل المستحدثة حينا كالصور المحركة ، أو مسرح العرائس أو الأفلام والمسارح المتطورة ، وبالوسائل التقليدية حينا آخر كالمقاهى ورواة السير الشعبية ومغنّيه ومنصّات خيال الظل أو القراقوز فى الموالد أو الأفراح وحفلات الختان ، وما إلى ذلك من الاحتفالات الشعبية التى تتطلب أماكن ثابتة أو سرادقات متنقلة .

لكن عصر السرعة الذى نعايشه ، صار يتطلب من الأدب الشعبى السياحى نوعًا من التناسب مع سرعته ، وهذا التناسب إما أن يكون بالإيجاز والقصر ، وإمّا أن يخضع للانتقاء والاجتزاء غير المخلّ بفحوى الموروث المسترسل ، كالسِّير والملاحم الشعبية والأساطير .

وإذا كانت الإيقاعات الحياتية السريعة تُملى علينا هذا ، يكون عرضها على وفود سياحية موقوتة الإقامة ألزم باتباع هذا التناسب .

ترى هل يمكن هذا استعانة بالحكاية والنادرة والمثل الشعبى ؟

فى الحق إن الصلة وثيقة بين الحكاية الشعبية وبين الأسطورة ، وتتمثل هذه الصلة فى الملحمة التى تحكى وقائع الأبطال فى جمع شمل أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات ، جمع كلمتهم على تحقيق نصر على عدو بالغ القوة ، أو على اقتحام كل صعب وتخطى العقبات المتتالية :

إننا لا نريد أن ننتقى حكايات الحيوان ، لأن موروثها الشعبى يعتمد على الخرافة ، وليس على الأسطورة الاعتقادية ، نعم تتوافر فيها الملاءمة لمجتمعات مختلفة لحكايات كليلة ودمنة وأصولها ، التى تمثلت فى « البانجاتانترا » الهندية ، وامتدادها إلى خرافات أيوب اليونانية وتسللها إلى أدب الثقافة عند لافونتين الفرنسى ، ويسنج الألمانى ، إلاّ أنها أقل قيمة وشيوعا من تلك المرتبطة بالأسطورة الاعتقادية ، لأن هذه الأخيرة ، فضلاً عن أنها تتضمن شخوصًا أبطالاً ، فهى أيضا تقوم على مبدأ التقديس والتأليه لأولئك الأبطال ، لذلك فإن هذا النوع من الحكايات الشعبية الأسطورية يلقى تجاوبًا وشغفًا لدى المتلقّين بشتى جنسياتهم ، أمّا حكايات الحيوان الشعبية فهى تتضمن رموزاً يعبّر بها الوجدان الشعبى عن مشاعره من كره ورفض واحتجاج تجاه حاكمه المستبد ، فإن دلّ هذا على شىء فإنما يدل على خلة الخوف والجبن تجاهه ، فضلاً عن أن رمز الحيوان المستخدم لا يكون

إلا مجرد وسيلة للتعبير ، لا تتوافر فيه مقوّمات البطولة المنشودة فى الأسطورة الشعبية .

استمع معى إلى هذه البكائية الأسطورية :

« عد إلى دارك ، عد إلى دارك أيها الإله ، تعال إلى دارك يا من لا عدوّ له ، أيها الشاب الجميل تعال إلى بيتك لكى ترانى ، إننى أختك التى تحبّها ، إنك لن تفارقنى بعد الآن ، أيها الفتى الجميل عد إلى بيتك ، نعم أنا لا أراك ومع ذلك فقلبى يذوب حنينًا إليك وعيناى تتلهفان على رؤياك ، تعال إلى التى تحبّك ، إلى التى تحبّك ، يا أونيفر المبارك ، تعال إلى أختك ، عد إلى زوجتك ، إلى زوجتك ، يا من توقّف قلبه عن النبض ، عدْ إلى بيت الزوجية إننى أختك ، أمّنا واحدة ، لن تفارقنى بعد الآن ، إن الناس والآلهة يولون وجوههم نحوك ويبكون معًا من أجلك ، إننى أناديك باكية وقد بلغ نحيبى عنان السماء ، ولكنك لا تسمع صوتى مع أننى أختك التى كنت تحبّها فى هذه الحياة الدنيا ، إنك لم تحبّ سواى ، يا أخى ، يا أخى » .

من هذا النواح الثنائى ، الذى جمع بين الأختين إيزيس ونفتيس ، حزنًا على أخيهما أوزيريس الذى قتله أخوه « ست » لغيرته منه وحقده عليه ، ولم يكتف بقتله ، فأُخرج جثته من تابوته وقطّعها إلى أربعة عشر جزءا ، ثم بعثرها فى بقاع مختلفة ، من هذا النواح يتبيّن لنا أن إله الشمس رع ، قد رقّ قلبه لنواحهما ، وبعث إليهما بالإله

أنوبيس الذى تمكن من لمّ أشلاء الجسد الممزّق ، وتمكن كذلك بمساعدتهما من ضمّها إلى بعضها وربطها بضمادات من الكتان ، ثم أدّى طقوسًا وشعائر مصرية جنائزية ، رفرفت بعدها إيزيس فى السماء بجناحيها ، نزلت الروح بعدها إلى جسد أوزيريس فعاد إلى الحياة ، ليصير بعد ذلك ملكًا على الموتى فى العالم الأبدى . ويتولّى فى قاعة الحقيقتين رئاسة محكمة الأرواح ، لمحاسبة الموتى بوزن قلوبهم فى ميزان العدالة ، ثم يحكم عليهم إمّا بالخلود وإمّا بالقصاص على قدر خطاياهم . أسطورة كما نرى ، اعتمدت على مشاعر سائدة ، وعقائد متحكّمة فى النفوس ، لا يقتصر استعطافها لقلوب رعايا الفراعنة فحسب ، وإنما تستثير عطف الأجيال التالية وفضولها لمشاركة أشخاصها المقدسين مأساتهم ، والإصغاء لبكائياتهم . فلا نعجب إذا وجدنا الآن جماعات من السياح يبيتون عند سفح الأهرام ، لينعموا بشروق شمس الصباح عند قدمى الفرعون الغائب !! فمثل هذه الأساطير تظلّ متداولة لا تبلى ولا تبرد جذوتها .

لكن ليكن معلومًا أن الدين أيام الفراعنة ، كما يقول الأثرى العالم سليم حسن ، لا يندرج كما يحسب البعض فى الوثنية ، مثلما فعل العبرانيون قبل موسى عليه السلام ، ومثلما عبدوا « بعل » بعد نبوّة موسى إليهم ، وكذلك ليس الدين الفرعونى مثلما عند الهكسوس الذين عبدوا « البعليم » ، وإنما خلاصة الدين المصرى أن رب الأرباب

آمون ، هو سرّ الوجود ، وأنه استخلف على مصر أبناءه الملوك ، وأن بنوتهم المقدّرة له ، لم تكن كبنوة اليهود مجرد كلام يناقض الفعل ، وأن هناك « حساب » بعد الموت أمام محكمة أوزيريس ومساعديه الاثنين والعشرين قاضيا ، فمن لم يرتكب السوء هو الذى يحيا مرة ثانية .

أى أن الدين المصرى الفرعونى دافع إلى التمسك بالفضائل البشرية المحضة من عادات وتقاليد ، يدفع ذلك كله إلى ربط الحضارة بالمدنية ، وعندما نظموا القوانين لصيانة التراث الشعبى وسّعوها كحق قانونى من حقوق الناس أجمعين ، مواطنين وغرباء .

والغرباء أو الأجانب قد عاشوا فى مصر بكثرة منذ أيام الفراعنة ، وبدءا بالأسرة التاسعة فى الفيوم على وجه الخصوص .. أى أثناء ما أطلق عليه دولة الإقطاع ، وازدهر أيامها أدب المقاومة من شكل التعاليم والحكم إلى قصص صريحة مباشرة ، كقصة الفلاح الفصيح ، مما كان له أثره الواضح فى إعلان شعار الوحدة الوطنية على أيدى الأمراء فى الصعيد ، وغلبته نهائيًا على يد أنتوف العظيم منذ عام ٣٣٦٠ ق . م .

هذه الوحدة الوطنية لم تتعارض أبدًا مع مقتضيات الترف وعقد أواصر الصداقة مع الغرباء الذين وصفتهم المدوّنات المصرية بالغرباء تارة ، وبالبدو تارة أخرى وبالآسيويين وبأصحاب الأقواس التسعة

كثيرًا ، مما قطع بأن هذه الصداقات والعلاقات لم تقتصر على جنس منهم دون الآخرين ، فصاروا كلهم فى نظر المصريين القدماء شيئًا واحدًا .

ولو ربطت بين تابوت أو الصندوق فى أسطورة إيزيس وأوزيريس ، وبين الصندوق فى قصة سيدنا موسى حيث وضعته أمه فيه وألقت به فى اليم أو نهر النيل ، حيث ألقت به أمواجه عند قصر الفرعون .. للمست نوعا من النظرة الشعبية المتشابكة للرغبة فى الحفظ والإخفاء داخل صندوق أو تابوت على السواء .

كما تحضرنى الآن أسطورة « نفررهو » التى نبعت وشاعت بين الرعاة العبرانيين فى مصر ، إذ صوّرت الواقع مليئًا بالظلم ، خلا تمامًا من العدل ، ولسوف يوصل هذا الظلم وهذه الفرعنة إلى الاغراق فى الذل والجوع والقحط ، فنرى صور الناس فى الأسطورة وقد انحنت ظهورهم ، مستسلمين لليأس والهزائم ، ولن ينقذ أولئك إلا مقدم مخلّص من حيث لا ندرى ، ليأخذ بأيدى الناس جميعًا من وهدة الذلّ !! ألا وهو ربّ الجنود .

لقد شاعت هذه الأسطورة منذ أيام الملك سنوسرت الأول ، وشعشعت فى النفوس لتتمكن منها أيام أمنمحات الأول ، إذ حاول بعض السكان فى البلاد التظاهر بالضعف والفقر أما ربّ الجنود ليقودهم إلى احتلال الأرض التى سيبيد أصحابها ، بينما كان بقصر

الملك أحد المتعاونين معهم وهو سنوحى ، وبينما تلقف السكان المتظاهرين يشوع بن نون ليجعلهم خدّامًا له فى إنقاذ حياة الرعاة العبرانيين .

لكن سنوحى الذى حاول الاطاحة بالملك أمنمحات الأول ، خابت مؤامرته وطاش سهمه ، فتم انتصاره ، وفرّ سنوحى إلى الرعاة ليعيش بينهم فى برارى سيناء ويتزوج من ابنة لهم .

وحكى الملك ما جرى فى صيغة وصايا مدوّنة بكتاب « الأدب المصرى القديم » للدكتور سليم حسن ، نجتزئ منها :

« قد جعلت الرجل المغمور الذكر يصل إلى غرضه مثل صاحب المكانة » .

« وقد كان آكل خبزى هو الذى جند الجنود ضدى » .

« والرجل الذى مددت له يد المساعدة هو الذى أحدث لى بها المتاعب » .

« والذين يرتدون فاخر كتّانى ، عاملونى كالذين هم فى حاجة إلى الكتان » .

« والناس الذين يتضمخون بعطورى قد لوّثوا أنفسهم وهم يستغلونه بخيانتى » .

« لم أحتط لنفسى ضد هذه المؤامرة ، فإنى لم أفطن لها من قبل ، هذا فضلاً عن أن قلبى لم ينتبه إلى تراخى الخدم !! » .

« هل حدث أن النساء اصطففن فى ميدان المعركة ؟ » .

« ولو كنت أسعف بالسلاح فى يدى لكنت شتتت شمل مخنّثى الآسيويين » .

ومن كل هذا نلمس أن الأحداث التاريخية مولّدة للآداب الشعبية ، كما هى ملهمة للأدب غير الشعبى ، ومن ثم لقيت ولازال تلقى إقبالاً من القادمين كسياح أو باحثين على السواء ، ربما لأنها أصدق دلالة ، وأثرى خامة لكل منقّب فى مأثورات الشعوب ، فعلى نفس الوتيرة سارت السير الشعبية موازية للتاريخ العربى عامة والإسلامى بعدئذ على وجه الخصوص ، فمن أحداث سيرة ذات الهمة ببدايتها من العصر الجاهلى حتى أواخر الدولة العباسية فى عهد الخليفة الواثق بالله ، إلى أحداث سيرة الظاهر بيبرس بدءا بالمقتدر بالله ببغداد وعبورًا بالدولة العباسية الثانية كلها إلى مصر فى عهد الأيوبيين لتواكب الحروب الصليبية كلها حتى عهدىْ الصالح أيوب ، والظاهر بيبرس نفسه .

سيرة الظاهر بيبرس ودور اليهودى
فى الحروب الصليبية

ونحن إذا كنّا نقرأ سيرة الظاهر بيبرس كبطل مملوكى – نعم – ولكنه اكتسب صفة الزعيم الشعبى ، لإخلاصه لمصر التى نما فيها وترعرع ، تشرّب لبانة أهلها ، انصهر فى حياة أحيائها ، كابد مرّها ، وكذلك استطعم حلْوها ، استنار قلبه بعقيدة دينها ، ثم أُحسّ بالعار كل العار لوْ بقى الغزاة الفرنجة على أرضها ، فلا غرو أن يلتف أهل مصر قبل مماليكها حولهن ويرضون بقيادته لعسكرهم ، وينزلون عن مراكبهم فى النيل طواعية ، ليحشد الرجال خلف سفن الغزاة فى المنصورة ، ويحصرهم بها ، ويمسك بملكهم لويس التاسع فيأسره ، ويخشى الباقون أن يحصدهم ، فيفرّ من يرجو النجاة ، ويقع من خانته قدماه ، فيتحقق النصر المؤزر على يديه ، وينأى عن الشهرة والأضواء قناعة بالثقة التى لديه .. فلا غرابة إذا ما احتضنته السيرة الشعبية احتضان الأم لفلذة كبدها ، وخلّدته علمًا على الصمود إذا ما خلصت نية الشعب جميعه فى مساندته .

لكن المساندة هنا لم تخلُ من وجود خوارج ، والخروج على إجماع

الأمة – خاصة إذا ما كان الاجماع حول قضية الوطن وتخليص الأرض من غاز غزاها – ليس خروج تحرر بل شذوذ خيانة ، وهكذا وجدنا في سيرة الظاهر امتدادًا نمطيًا لما انطوت عليه روحنا الشعبية منذ أيام الفراعنة ، وجدنا شخصية الجاسوس الخائن ، جوان ، وها نحن نستمع إلى تساؤل الكاتب الفنان الشعبى الراحل زكريا الحجاوى ، فيقول :

« ما الدافع الذى سيطر على الكاتب الشعبى الذى ألّف سيرة « الظاهر بيبرس » عندما صوّر رغبة اليهودى الملحّة فى تخريب الجبهة الداخلية أيام الحروب الصليبية ، حيث وضع من بين شخصيات السيرة رجلاً ، تراه فاضلاً مهندما يلبَس لباس العلماء ، ويرقى إلى مناصبهم ، ويحمل السبحة ويطلق لحيته ، ولا يسير إلا متمتمًا ، مبسملاً ، محوقلاً ، ويكاد يطير من فرط الورع ، وفجأة يعرّى لك الكاتب الشعبى حقيقته ، عندما يصفه لك فى مأزق ، وإذا به .. يهودى !!

وليس هذا موقفًا شعبيًا معادٍ لجنس دون آخر ، بدليل معايشة المصريين القدماء لسائر الغرباء ، والتزوج من نسائهم ، وتبادل المعاملات معهم ، لكن شذوذ فرد أو فئة قليلة ، وخروجها على إجماع المواطنة ، تلزم الفنان الشعبى بأن يكون أمينًا فى تقديم صورة كاملة لمجتمعه ، ولكى تتوافر عناصر الصراع أيضًا فى مثل هذا العمل الفنى الشعبى . فإذا أضفنا إلى هذا امتداد السيرة الواحدة إلى عدّة قرون

وأجيال ، وكذلك اتساع أحداثها للإضافات التى تعدد من مساراتها ، إن لم تغير من اتجاه بعضها ، فربما نعثر بعد حين على إضافات شعبية لهذه السير على ألْسن رواتها ، خصوصًا أننا صرنا ننعم بحصيلة كبيرة من السير فى عصر واحد ، بعضها يساند بعضًا ، أو يناقضه ، ويكتسب كل عمل من هذه الأعمال أنصارًا يتحزّبون له دون غيره ، ومن كثرة العرض يكثر الأنصار ، كلٌّ حسب مزاجه ومشربه ، يتساوى فى هذا المواطن والمستوطن والوافد الغريب .

وعندئذ نعود إلى التساؤل الذى بدأناه ، هل يمكن تجزىء السيرة الواحدة إلى فصول قصيرة نزولاً على متطلبات عصر السرعة الذى نكابره ، وكذلك ملاءمة لظروف القادمين فى وفود سياحة موقوتة ؟ أم أن الحكايات والأمثال والنوادر هى الأنسب للأدب السياحى ؟ مما لاشك فيه أن الصفة الأساسية للأدب الشعبى هى الأداء والممارسة ، فلنترك الإجابة على هذا السؤال للتجربة والتطبيق ، بتقديم شتى أنواع هذه النماذج إلى متلقيها ، وفى هذا فليتنافس المتنافسون .

معالم سياحية
على أرض مصر

أولاً : أثرية ..

في أسوان وكوم امبو ، قصر أنس الوجود ، وحديقة النباتات وأبو سمبل ، في الأقصر ومندرة .. معابد الأقصر والكرنك والرقسيوم ومعبد أدفو والإلهة هاتور ، ومعبد إسنا ومعبد فيليه ، وتمثالا ممنون في جرجا والبلينا وأخميم ، مقابر العرابة المدفونة (أبيدوس) ، البرباء في الوداى الجديد ، الواحات الخارجة (معبد آمون) ، واحة سيوة (معبد آمون) في المنيا ، مقابر الأشمونين ، أثر السيدة مارية القبطية ، جامع الشيخ عبادة في بني سويف والفيوم ، أهناسيا (آثار قليوبوليس) هرقالشت ، هرم اللاهون ، هرما دهشور ، هرم هوارة وآثار معبد اللابرانت في الجيزة ، سقارة (الهرم المدرج ، مصطبة سنفرو ومصطبة فرعون ، بمنف) أهرامات خوفو ومنقرع بالجيزة وخفرع بأبي رواش ، وأهرامات سقارة الصغيرة لأوسركاف وسهورع ونيو سررع وأوناس ثم أهرامات صغيرة للفراعنة تيتي وفيوبس الأول ومرفرع ونفركارع ، معبد إيزيس في بهبيت (مركز العياط) .

في القاهرة : مصر عتيقة (بقايا أبراج حصن بابليون ، الكنيسة المعلّقة ، كنيسة أبي سرجة ، المعبد اليهودى ، سور قلعة الجبل بدءا بسواقى فم الخليج ، مقياس الروضة ، جامع عمرو بن العاص) قصر الأمير محمد على .

أحياء القاهرة الأثرية بمساجدها (أحمد بن طولون والسيدة زينب والجامع الأزهر ، ومسجد الحاكم والسلطان حسن وقلعة صلاح الدين ، ومسجد محمد على وقصر الجوهرة ومسجد الجيوشى ، ومسجد الغورى والسلطان برقوق وجامع ومدرسة قلاوون ومسجد المؤيد وبوابة المتولى أو باب زويلة ومدفن قايتباى بالقرافة وقبة مسجد الإمام الشافعى) .

شمال القاهرة .. المطرية (كنيسة وشجرة السيدة مريم العذراء) هليوبوليس (آثار عين شمس وتل الحصين) مسلّة .

في الشرقية .. صان الحجر (قرب فاقوس) مقابر وآثار .

في الدقهلية .. تمى الأمديد – تل القصر .. عاصمة الأسرة ٢٨ ، أول دير بطلخا – ديرطيانا ، ودار ابن لقمان بالمنصورة .

في المنوفية .. صا الحجر ، قرب كفر الزيات .. بها آثار عاصمة الأسرة ٢٦ بعد طرد الآشوريين .

فى الغربية .. سينيتوس فى قرب سمنود ، بها آثار عاصمة الأسرة ٣٠ ، مسجد السيد البدوى بطنطا .

فى البحيرة .. كوم الحصن (بين دمنهور وإيتاى البارود) ، بها آثار إغريقية .

فى الإسكندرية .. آثار إغريقية ورومانية ، وقصر رأس التين والمنتزة ..

فى كفر الشيخ .. سخا .. آثار عاصمة الأسرة الـ ١٤ .

ثانيًا : ترفيهية ورياضية ..

فى الصحراء الشرقية ، ساحل البحر الأحمر ، الغردقة ، مجاويش (فيها رياضة الغطس) .

فى جنوب سيناء ، وشرم الشيخ ، رأس محمد ، نويبع ، طابا ، عيون موسى .

فى شمال سيناء ، دير سانت كاترين ، الوادى المقدس ، الفرما والعريش وبهما آثار فرعونية وإسلامية ، بحيرة البردويل التى غرق فيها الملك الصليبى بلدوين وبها رياضة الصيد .

ثالثًا : علاجية ..

فى القاهرة : حلوان وعين الصيرة . (عيون كبريتية) .

ومن المعالم السياحية أيضًا ، متاحف القاهرة ، وهى :

١ – متحف الآثار المصرية ..

يحوى مائة وخمسين ألف قطعة ، عدا مئات ألوف أخرى من القطع الأثرية المخزون أكثرها ، والتى كشفتها عمليات التنقيب فى المقابر التى لم تمتد إليها يد من قبل ، وأهمها مجموعات مقبرة الملكة « حوتب حورس » أم الملك خوفو مشيد الهرم الأكبر . وقد عرضت بعض آثارها ، وخزّن معظمها .

ومنها مجموعة مقبرة الأميرة نوب – حتيتى – خرد ، إحدى أميرات الدولة الوسطى ، وقد عثر على حليّها كاملة ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٩٠٠ ق م ، وكذلك آثار مقبرة الملك الصغير توت عنخ آمون ، التى يبلغ عددها ١٧٠٠ قطعة من الآثار النادرة ولا يتسع المكان فى المتحف لعرضها .

لذلك فإن المتحف يعتبر أهم وأغنى متحف للآثار الفرعونية فى العالم ، ولو قيست مجموعات متاحف اللوفر ولندن وليدن وتورين وبرلين ومتروبوليتان وشيكاغو الأثرية ، فهى على الرغم من أهميتها لكنها لا تقاس شيئا بجانب مجموعات المتحف المصرى .

لهذا يشرع الآن فى إنشاء متحف آخر أضخم ليتسع للمجموعات الكاملة التى عثر عليها دون أن تجد لها مكانًا فى المتحف الحالى .

ومن أهم قاعات المتحف الآن وأجنحته ، المكان المخصص لآثار الدولة القديمة ، وهو عصر اكتمال الحضارة المصرية الخالصة البعيدة

عن أى تأثير أجنبى ، ومن أبرز تماثيلها تمثال الملك خفرع ، والملك منكاورع ، وتماثيل شيخ البلد ، ورع نفر ، ورع حتب مع زوجته نفرت ، وكلها من حجر الاردواز .

كما أن هناك تماثيل لنماذج عامة كتمثالى صانع الجعة والخبز ، وتمثالان للملكين سنوسرت الثالث ، وأمنمحت الثالث يدلآن على نهضة فن النحت فى الدولة الوسطى ، ومجموعة الملك أخناتون الجصية المستوحاة من الطبيعة فضلاً عن تماثيله الضخمة ، وتماثيل زوجته الجميلة نفرتيتى وخاصة رأسها .

ونجد أيضا كنوزًا أخرى من التيجان على هيئة باقة زهر من الذهب الخالص . وقاعة للمومياوات التى ترجع لآلاف السنين .

٢ - المتحف القبطى ..

من أهم جوانبه قسم الأحجار التى حفرت عليها زخارف ورسوم رائعة ، ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، من أهمها أيضًا أثر يمثل السيد المسيح والسيدة العذراء والاثنى عشر رسولاً ، وقد رسم بالألوان على الطين .

ويحتوى قسم النسيج فيه على قطع من نسيج يدوى منذ القرنين المذكورين ، وتمتاز بالدقة وجمال اللون ، ومصوّرات للطيور والحيوانات والآدميين ، فضلاً عن صور لعازفين على المزامير

وراقصين ، وقطع أخرى مطرزة بالصوف الملون . كما يحتوى قسم الأيقونات على آثار من الزجاج والعاج والخشب نادرة لدقة حفرها ، وعلى مصراعين ، حشواتهما من خشب الجوز يعلوهما نقشان بارزان للسيد المسيح .

وفى قسم المعادن مجموعة قيمة من الشمعدانات والمباخر على شكل تنين مكفّت بالذهب والفضة .

كما ضمت مكتبة لمتحف مخطوطات نادرة فى مقدمتها كتاب البشائر الأربع باللغة العربية (الإنجيل) بتاريخ ١٣٣٤ ميلادية ، وازدانت أولى صفحاته وذهبت بنفس أسلوب النقش والكتابة الكوفية الموجود فى المصاحف المعاصرة .

٣ - متحف الفن الإسلامى ..

يضم أندر مجموعة من التحف والآثار الإسلامية المصرية ، زادت على السبعين ألف قطعة منذ الدولة الأموية ثم العباسية وما تلاها من عهود .

ومن أبرز القطع الأموية إبريق من البرونز له بزبوز على هيئة ديك فاتحًا منقاره ليصيح ، وقطعة أخرى من النسيج عليها فارسان متقابلان يمسكان بترسين وسهمين للصيد .

ومن العصر العباسى ضم المتحف زخارف جصّية منقولة من البيت

الطولونى ، ومن العصر الفاطمى قطع خشبية منقوش عليها مشاهد من الحياة الاجتماعية والفنية ، كالرقص والعزف على آلات موسيقية والصيد .

ومنها محراب السيدة رقية والصور المرسومة بالألوان المائية على الجص من الحمامات المكتشفة حديثًا بالفسطاط .

وهناك مجموعات كبيرة رائعة من الكئوس الزجاجية منقوش على إحداها رسوم غزلان ، وأخرى من الخزف ذات البريق المعدنى الذهبى منذ ثمانية قرون ، ومشكاوات رائعة من الزجاج المموّه بالمينا الملَوّنة .

هذا فضلا عن قطع المعادن والنقود ومجموعات من الأسلحة مرصعة بالجواهر ، وبعضها مكفّت بالفضة والذهب . وكذلك مجموعات السجاد النادرة .. مخيّش بعضها بالذهب والفضة من صناعة أصفهان فى القرن السادس عشر الميلادى .

مدن مازالت آثارها
تمــلأ العــالم

• **الأفلاج** .. مفردها فلج ، وهى تسمّى أيضا باسم ليلى ، نسبة إلى قصة الحبّ الخالدة بين قيس وليلى ، وتقع فى حضن جبل طويق هى وبعض القرى غرب الربع الخالى بالمملكة العربية السعودية .

وإذا أردت أن تتنسم ما تركه العاشقان من عبير حبهما العفيف ، فلن يدلك أحد من أهلها آل مرة والدواسر ، لذلك فإن الشاعر أراحنا بقوله :

ولو أن قلب طويق بـاح بسرّه   لم يعد ماهو شفّ عنه مجلجلا

وما عليك إلا أن تتلمس أطلال آثارها ، حتى تهتدى إلى أسرارها ، سترى بحيرات وعيونا عذبة تتناثر على سعة من السهل الفسيح ، وبينها على الشطآن تقبع حصون كانت تحمى فى الماضى أهم طرق التجارة فى الجزيرة العربية ، من تلك الحصون ، حصن العقيدة ، حصن بنى عياض ، وحصن العادية ، وحصن آل ضرار ، وبنى صهيب ، وبنى قرط ، وحصون بنى ثور ، كما ترى قصر الأزال يحمل سمات العزّ التليد ، هو قصر سلمى المحاط بخندق من كل جوانبه بعرض عشرة

أمتار وعمق المترين ، لذلك بدا القصر شامخًا وسط الخندق ، فتبدو وقممه من خلف أربعة أسوار أخرى بعرض ثلاثة أمتار ، والقصر مشيّد بشكل سداسى ، وينهض برج كبير للمراقبة والدفاع عند كل زاوية من الأسوار .

ويسكن القصر بعض أهالى البديع ببيوت حديثة التشييد ، لكن حجرة لازالت قائمة على حالها ، ليس لها باب ، وإنما ينزلون إليها من فوق ، لذلك قيل إنها كانت سجنًا فى الماضى ، كما ظل موجودًا للآن مخزن التمر ، لذلك فإن كل من يشاهد القصر يراه قد علا فى السماء بينما أسفله سابح فى الماء ..

وتتّسم بلدة ليلى بالبيوت الصغيرة ذات اللون الأبرش ، انبسطت سطوحها المصنوعة من الطين ، ومما لاشك فيه أن يتوق بالزائر الشوق إلى جبل التوباد الذى كان مرتع صبا العاشقين ، إنه شامخ فى قلب جبل الطويق نفسه ، وفى عرض التوباد غار قيل إن المجنون كان يختبئ فيه وحده أوْ مع ليلاه ، ويرقد على يمين الجبل شعب كان يسرح فيه العاشقان بغنمهما ، بينما تتهاوى بقايا أطلال مقبرة فى أسفل الشعب ، ويكاد الزائر يسمع ترداد أبيات قيس راكعًا أمام الجبل ويقول :

وأجهشت للتوباد حين رأيته ... وَكَبَّرَ وسبح للرحمن حين رآنى

* **دمشق** .. هي في الأصل مشق ، وحرف الدال للنسبة ، وردت في الهيروغليفية على هذا النحو بمعنى الأرض المزهرة أو الحديقة الغنّاء .

واللفظة آرامية الأصل ، وإرم ذات العماد التي وردت في القرآن الكريم تعني دمشق ، وآرام تعني السهل المرتفع عن سطح البحر ، وهي بالفعل تعلو عنه بألفي قدم . ولك أيها الزائر أن تتخيل لمثل هذا السهل العالي المزهر من جوّ نقيّ ممتع . عمرُ دمشق أربعة آلاف سنة ، فهي بذلك أقدم مدينة في العالم باقية على عمرانها ولدمشق واديان ، أحدهما يشقه نهر بردى ، والآخر يخترقه نهر الأعوج بدءا من سفوح جبل الثلج ، كما لاتخلو أعالي جبالها من الثلج صيفاً وشتاء .

كثرت فيها آثارها وتعددت حسب العهود التي مرّت بها ، وما برحت عُمدُ الشارع الأعظم (المستقيم) مدفونة على أمتار من سطح الأرض منذ أيام الرومان ، تعلوها الدور والحوانيت ، ومن أعظم آثارهم اثنان وخمسون حصناً وقلعة أقاموها بين دمشق وتدْمر إلى نهر الفرات ، حيث كانت حاميتها واقفة على الدوام دون تسرّب أهل البادية إلى المعمور من دمشق وأرباضها .

ومن آثار الرومان قلعة دمشق في غرب دمشق « الأسد الرابض » وعملت في ترميمها في سائر أدوارها ، لكن أكثرها تحطّم تاركًا جدرانًا متآكلة ، بينما أقيم فيها جامع على مقربة منه أنقاض كنيسة

حنانيًا التى شيدت فى القرن الرابع الميلادى ، وتناثرت حولها تماثيل وأحجار مهشمة ، وكذلك أنقاض سور حول المدينة .

ومن آثار الأمويين ، قصر الخضراء نسبة إلى قبته ذات اللون الأخضر ، والجامع الأموى الذى تكامل بناؤه فى عشر سنين ، فى مكان معبد للصائبة والكلدان والسريان واليهود وكنيسة ، فبلغت مساحته ربع دمشق القديمة ، وأقيم على أعمدة من الرخام على طبقتين التحتانية كبيرة ، والفوقية صغيرة ، فى خلالها صورة مدينة وشجرة معمولة بالفسيفساء بالذهب والخضرة والصفرة ، فكان أجمل جامع فى الإسلام ، وتعرّض للحريق فى دولة الفاطميين وبعدها ست مرّات ، كما أصيب أكثر من مرّة بزلازل أثرت على مآذنه الثلاث وبعض أركانه وشراريفه ، ويعاد إصلاحه فى كل مرة ، وقد وصفه الشعراء وتغنّوا بجمال الجامع أروع وصف .. فأجمعوا على أنه :

ذو قبّة رفعت فضاهت قلة ... ومنابر بنيت فحاكت معقلا
تبدو الأهلّة فى أعاليها كما ... يبدو الهلال تعاليا وتهللاً
ويريك سقفا بالرصاص مدثرًا ... يعلو جدارًا بالرخام مزمّلاً
فإذا تذر الشمس فيه تخاله ... برقًا تألق أو حريقًا مشعلاً
تبدو القباب بصحنه لك مثلما ... تبدو العرائس بالحلى لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة ... سالت فظنّوها معينا مسلسلا

ولقد اشتهرت دمشق بحمّاماتها لتدفق المياه عليها من كل صوب ،

وتميّزت مبانيها بالأناقة والنظافة ، وزوّدت منذ القرن العاشر الميلادى بمقاصير من القاشانى البديع وقد بلغ عددها حتى القرن التاسع الهجرى مائة حمام ، كان من أهمها : حمّام الجسر الأبيض ، والسلطان ، والدبس ، والرّاس ، والمناخلية ، ومنجك ، والقناطر ، والقيشانى ، وقصر العظم ، والقارى ، ونور الدين بالبزورية ، والقاضى ، والخياطين ، والموصلى ، وفتحى ، والتوتية ، وحمّامًا الجديد والخراب ، وهى من الحمامات التى تخلّت عن وظيفتها ، حتى حمام الجديد . لكن لازالت توجد حمّامات دمشق المعاصرة وهى : العفيف ، والمقدّم ، والورد ، والجوزة ، والخانجى ، والعمرى ، وأمونة ، والسكاكرى ، والقرمانى والملك الظاهر ، وسامى ، والقيمرية ، والبكرى ، والنوفرة ، والسلسلة ، والحدادين ، وقماحين والناصرى ، وعزّ الدين ، والصفى ، والسروجى ، والتوريزى ، والزين ، والذهب ، والشيخ حسن ، والرفاعى ، والعقيل وحمام الدرب .

وقد تفنن أهل دمشق فى جعل حمّاماتهم آية فنيّة ، فبطنوها بالقاشانى ، وبلّطوها بالرخام ، وعقدوا على أطراف قبابها ، وقرنها عقود الجصّ النافرة ذات الرسوم والتزينيات ، كما أقاموا البحيرات التى تتشامخ فيها نوافير المياه على أشكال بديعة وكان الناس يرتادون الحمامات ليمضوا وقتًا سعيدًا فى الاغتسال وفى تناول الطعام

والاستشفاء من بعض الأمراض ، لذلك لا عجب أن ساد المثل الشعبى الدمشقى على كل الأمثال ، وهو القائل : نعيم الدنيا الحمام .

لكن مع انتشار الحمامات الخاصة فى البيوت ، قلّت أهمية العامّة منها ، ومع ذلك ظلّ عامة القوم يقصدونها للاستحمام ، وما توقّف منها ظلّ أثرًا يُزار .

وإذا حدثتك نفسك أيها السائح أن تستحم بأحدها ، فيجب أن تلمّ بمراسم الدخول إذا كنت من الرجال ، فعليك بحمام الرجال ، وألق السلام لحظة الدخول ، وسيردّ عليك المعلم والناطور والحضور السلام ورحمة الله وبركاته ، وسيرحّب بك المعلم ، وهو يأمر الناطور (عتّب لو يا ولد) ، فيسرع الناطور بتقديم التعتيبة وهى عبارة عن بقجة من المناشف الحريرية عددها ثلاث ، واحدة لصرّ ثيابك ، والثانية تحزّفها على وسطك واسمها الوسط أو الماوية ، والثالثة هى الضهر ، إذ (تلحشها) أى تلقيها على ظهرك وكتفيك لتحمى جسمك من برد البرانى ، وعندما تفرغ من خلع ملابسك سلم المعلم ما لديك من أشياء ذات قيمة ، ثم تدخل إلى الوسطانى لتقضى حاجتك فى بيت الراحة ، ثم يستقبلك التبع مرحبًا ، ويسألك عن كيفية رغبتك فى الاستحمام ، إن كنت تريد مثلاً دواء لإزالة الشعر أم شفرة قبل دخول الحمام ، وهل تريد صابونًا وليفة تحمم بها نفسك ، أم تريد مصوبنا يغسلك ويكيّسك ، وهل تريد مساجًا (تمسيدا) بعد

الاستحمام أم لا ، فإذا أردت الاستحمام بنفسك تركك التبع وأعطاك الصابون والليفة نظير ثمن تنقده إياه ، أمّا إذا كنت تملك الصابون والليفة فإن التبع يخدمك نظير إكرامية حسب كرمك .

وإذا أردت الاستحمام بواسطة المصربن ، فإن الريس يتسلّمك إذا كان خاليًا ، أو التبع إذا كان المصوبن مشغولاً ، ويجلسك على مصطبة بيت النار ، حيث يرش لك الماء على البلاطات فيتصاعد البخار ليغطّيك ، وتعرق ، ويتحلل وسخ جسدك ، وفى هذه الأثناء يحضر التبع آنية مملوءة بالماء الساخن يضعها بين قدميك لتضعهما فيها مما يساعد على تخفيف تعبك ، ثم تتبع تبعك إلى مقصورة الصنعة بعد أن يجيء دورك ، فيتسلمك المكيّس ، لأن بيده كيسًا من الصوف أو الوبر ، ويتعمد أن يغسل الكيس أمامك جيدًا بالصابون قبل استعماله ، ويجلسك أمامه وجها لوجه بادئًا بأخذ يدك اليمنى يفركها بالكيس ، ثم اليسرى ، فقفاك فصدرك ثم وجه ساقيك ، وينادى على التبع (هات راسية يا ولد) ، فيلبى هذا على الفور محضرًا منشفة فيلفّها على شكل كعكة ليضعها على رأسك بعد أن يديرك ويرفع يديك مع الرأسية ثم ينصرف تاركًا الريّس يواصل التفريك بادئًا هذه المرّة من الساقين صاعدًا إلى ما بين الكتفين ، ثم يديرك وجهًا لوجه ، فيفرك تحت إبطيك بدون إضحاك ، ويفرك الرأس والكتفين والوجه إذا أردت .

نعم لا يخلو هذا العمل الشاق من إرهاق لك كمستحم ، ولكن النظافة من الإيمان ، فما بالك إن كانت هذه المراسم تجرى أيضًا فى حمامات السيدات وأكثر .. لذلك قال الشاعر :

أشكو إلى الله بلاّنا بليت بـه — مسّت أنامله ظهـرى فأدمانى

فـلا يدلك تدليكًا بمعرفــة — ولا يسرّح تسريحًا بإحســان

وتلى هذه المراسم عمليات صبّ الماء الساخن فيزول الوسخ ، ثم التدليك إذا أردت ، ثم يغسلون لك رأسك ثلاثة أو أربعة أدوار ويصب الماء الساخن عليها لإزالة الصابون ، حتى إذا ما زقزق شعرك ينتهى الغسيل ، لتبدأ بعدئذ عملية الصوبنة بتفوير الصابون بماء ساخن ، ثم الطبطبة بلطف على صلب مع التهنئة بكلمة « نعيمًا » فتنهض ويسكب الريّس ماء عليك حسب رغبتك حارًّا أو فاترًا أو باردًا ، ولا ينقطع التبع عن التجوال على سائر المستحمين ليلبى طلباتهم من ماء شرب أو زيادة حرارة الماء أو زيادة المياه الباردة ، حتى تحضرّ المناشف البيضاء ، يلف الريّس واحدة حول وسطك ، وأخرى يلقيها على ظهرك وكتفيك ، فتنقل إلى الوسطانى ، حيث ينادى على الناطور لتغيير المناشف لك بأخرى جافة ، ويراعى الناطور أن ينشفك جيدًا إن كان الجوّ شتاء ، ثم يتوجه بك إلى البرّانى فإلى المصطبة لتجلس عليها وتستريح حتى يبرد عرقك ، وتتكرر دائما كلمة نعيمًا .

هذه التفـاصيل إنما سُقتها لتدرك مدى العناية التى كانت تتبع لضمان عدم الإصابة بنزلة برد أو التهاب رئوى بعد الخروج ، فيسقونك ما تشاء من مشروبات باردة أو ساخنة بدءا من اللمازوز والعصائر ، ومرورًا بالشاى والقهوة والزهورات واليانسون والقرفة والزنجبيل ومع كل هذه العنايات وقعت حوادث بالحمامات كالسرقات فى حمامات الرجال والسيدات على السواء ، كما كانت تقع حوادث سرقات الصغار من أمهاتهم بعد ما يسمى بحمام الفسخ لدى اللائى يضعن أو يلدْن بتسعة أيام .

كما كانت تكثر حوادث الزلق ، ومشاجرات السيدات ، ومع ذلك لا يتوقف الإقبال على هذه الحمامات لعراقتها ، وتمسّكها بتقاليد شعبية تستحق النظر والتسجيل .

* **تدْمرُ** .. يعود ذكرها إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، ومعناها بالآرامية (ملك) ، حتى بعد أن أطلق عليها الرومان اسم بالميرا ، ظلّ اسمها صامدًا حتى يومنا هذا ، وكان لها استقلالية وحياد بين الفرس والروم كلما تقاتلا ، فاكتسبت شهرة تجارية على مرّ التاريخ ، كما اقترن اسمها بملكتها زنوبيا أكثر النساء ذكاء وعلمًا ، ويكفى أنها تلقّت الدروس على يد الفيلسوف السورى كاسيوس لونجينوس فى حمص ، لذلك فإن الرومان عندما اغتالوا زوجها الحاكم ، كانت على أتم استعداد لتولىّ الأمور ، فوضعت ابنها الصغير « وهب اللات » على العرش

ونصبت نفسها وصية عليه ، وظلّت تتحين الفرصة بحذر شديد ، التى تطرد فيها الجيوش الرومانية من الشرق ، وتوطد قوة أسرتها الحاكمة فى المملكة التى ستعمل على توحيدها إلى الأبد .

ولّما تأكد لزنوبيا أن سكان المناطق غير راضين عن الحكم الرومانى ، ولسوف ينضمون إليها لمعاونتها ، ويمكنها أن تعقد تحالفًا مع الفرس ، كما انضم الجيش بقواده لها ، واحتل سوريا وفلسطين ومصر . ووصل شمالاً إلى البسفور والدردنيل ، إلا أن الحرب طال أمدها بعد أن اشتد أوارها .. فانخفضت الموارد الاقتصادية ، ونضبت القوة العسكرية ، بينما تولى أمر الرومان حاكم جديد رأى إيقاف القتال فى كل الميادين ما عدا زنوبيا الثائرة ، وما لبثت أن هُزمت قواتها فى أنطاكية ، وتراجعت إلى حمص ، وانكمش المقاتلون داخل أسوار تدمر ، وظلت زنوبيا بين المدافعين داخل الحصار مع مفاوضات التسليم عدة أسابيع ، لكنها فجأة غابت عن الأنظار ، مما أقلق قائد الرومان وأرسل الفرسان فى شتى الاتجاهات يبحثون عنها ، دون جدوى .

أمّا هى فتسللت هى وبناتها وابنها نحو حدود فارس لعقد تحالف بينها وبين سابور الأول ضد الرومان ، وكادت تنجح لولا أن أدركها الفرسان عند نهر الفرات فقبضوا عليها بينما استطاع ابنها العبور بخداعه لمطاردته ، مما اضطر إلى تغيير وجهته فلجأ إلى أرمينيا .

وكبّلت زنوبيا بسلاسل ذهبية ، وأرسلت هى وبناتها إلى روما أسيرة لإعدامها ، لكن حكام روما كرمّوا إخلاصها لذكرى زوجها ،

فأطلقوا سراحها لتعيش بقية حياتها هناك ، بينما تزوجت بناتها من أرستقراطيى روما ، وثار أهل تدمر لأسر ملكتهم فقتلوا الحامية الرومانية فانتقم أورليان منهم بتدمير مدينتهم ، ولازالت تدمر مليئة بأسرار الآثار الآشورية والآرامية والرومانية كالمعابد الضخمة والمسرح وأقواس النصر وصفوف الأعمدة .

كما تقع بالقرب من ساحة الآثار بعض القبور الجميلة ، منها قبر الإخوة الثلاثة مقام منذ عام ١٤٠ ميلادية ، وهو مدفن متسع له قناطر تحت الأرض ، وكذلك مقبرة أتيناتام التى تتميّز بكتابة منقوشة عليها منذ عام ٩٨ م ، ووادى المقابر ذات الأبراج المتفاوتة فى أحجامها ، وأكبرها برج جاميليك المقام منذ عام ٨٣ قبل الميلاد على المنحدر الشمالى لتلةّ أم بلقيس ، ويتكون من خمسة طوابق يدعم أحدها صخرتان على شكل رأسىْ نسر وأسد .

* **الرقة** .. هو الاسم العربى منذ اتخذها هارون الرشيد مصيفًا له ، لأنها تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات ضمن الأراضى الشامية ، وهى نظرًا لارتفاعها نسبيًّا فقد تمتعت بمناخ منشط ، يمنحها ميزة سياحية صيفًا وشتاء ، لكن الرقة أقدم فى العمر من اسمها العربى ، إذ يبلغ عمرها ثمانية آلاف سنة منذ العصر الحجرى فكانت مركزا لتجمع بشرى وتبادل تجارى وزراعى .

وكانت منطقة الرقة مركزًا لإمارة آرامية اسمها بيت آدين ، ضمن

الإمارات الآرامية على الفرات التى تؤلف حلفًا فى وجه الدول الطامعة ، حتى اكتسحها الآشوريون فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، ونقل ملك آشور كثيرًا من أهلها إلى نهر دجلة بمدينة كالح .

واتخذت الرقة اسمًا آخر فى العهدين الإغريقى والرومانى هو نيقوفوريوم ، ثم تعددت أسماؤها بتعدد القادة الغزاة ، واكتسبت أهمية خلال الحروب بين الفرس الساسانيين وبين البيزنطيين ، كما نالها من ويلات الحروب بقدر ما اكتسبته من أهمية حتى استقرت تحت حكم الروم بانتصارهم مثلما تنبأ القرآن الكريم مسبقا .

ومنذ فتح العرب الرقة اهتموا بها ، وشيدوا حولها سورًا ، وتعددت ضواحيها ، فالرقة البيضاء ، وهى الأكبر ، والرقة السوداء شرق الأولى ، والرقة المعوجة التى تقوم فوقها الآن رقّة سمرا . على ضفة الفرات الشرقية ، وزاد حظها من الاهتمام فى عهدى الدولتين الأموية والعباسية على السواء ، لكن خبا نجمها فى عهد الدولة الحمدانية فلم تلق إلا التجاهل والإهمال . ومدينة بهذا التاريخ ، صار من المتوقع أن تحوى عددًا من الآثار فى كثير من الحفريات .. ومنها على سبيل المثال بقايا السور وبه بوابة بغداد وقد عثر فى السور على تمثال ثمين لفارس يمتطى صهوة جواده مطلى بالذهب ، وكذلك قصر البنات الذى اكتشف حديثا عام ١٩٧٩ وبه زخارف جصيّة فى منتهى الرقة والجمال ، فضلاً عن جامع الرقة بمئذنته ورواقه .

* **جرش** .. هى واحدة من مدن عشر ، باسم مجموعة الديكابولوس ، للدفاع عن سوريا حينما كانت تابعة للرومان ضد مملكة الأنباط المستقلة فى الجنوب ، لكن هذه المجموعة فقدت أهميتها الدفاعية حينما استولى قائد الرومان على الأنباط ، ومع ذلك ظلت جرش مكتسبة أهمية خاصة نبعت من وجودها على مفترق طرق التجارة الدولية فى العالم القديم ، فضلاً عن أنها صارت فى قلب ولاية بلاد العرب بالقرب من عاصمتها الإقليمية بُصرى جنوب سوريا اليوم ، وهى منطقة كانت متمتعة بخصوبة أرضها ، فأسبغ عليها هذا وذاك نعيمًا ، وحقبة من الازدهار امتدت إلى قرنين من الزمان الثانى والثالث الميلاديين ..

فكانت هى العصر الذهبى لجرش ، وعلى الرغم من تاريخ إنشاء جرش غير معروف تمامًا بسبب عدم العثور بين الحفريات حتى الآن على ما يبيّن ذلك ، إلا أنه يمكن الاستناد إلى شواهد ترجح أنها لألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، فقد عُثر على أرضية حجرية لبناء من العصر الإغريقى يعود تاريخه إلى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، ومن آثار جرش الشهيرة : معبد الإله زيوس كبير الآلهة عند اليونان ، ويقع على قمة تلّة هى فى الغالب تلة « كامب هل » ، وهو المعبد الرئيسى ، وتزامنت الأوانى الفخارية هناك مع الكتابات المنقوشة والمصنوعات التى وجدت على مصطبة المعبد ، وللمدينة سوران :

أولها روماني بلغ سمك جداره ١,٧٥ مترا ، وثانيهما أكثر سمكًا يعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادى ، كما أن للمدينة مسرحين ، شمالى بواجهته الأمامية وبوابته ، وجنوبى وهو المسرح الأكبر لأنه احتوى على اثنين وعشرين صفًا من المقاعد ، ويوجد منقوشًا على بعض المقاعد بقاعة الاجتماعات العامة أسماء آلهة اليونان ، كما بلغت سعته ألفا وستمائة شخص ، ويبدو أثرُ طريقين رئيسين فى المدينة هما «كيومانوس» و «كاردو» تتخللهما أقواس تذكارية فى نقاط التقاء الشوارع ، كما تحدد جانبى كل طريق أعمدة ذات تيجان ، وكتل حجرية منقوش عليها إله الشمس والقمر ، وبحلول القرن الرابع الميلادى صارت تفقد هذه المنطقة مكانتها ، فتهدم المسرح الشمالى بفعل الزلازل ، واستعان الأهالى بأحجاره فى منتصف القرن السادس لبناء كنيسة بجوار أرض المسرح من ناحية غربه .. وظلت عامرة حتى نهاية القرن الثامن الميلادى لمّا حطمها زلزال آخر ..

وآثار الكنيسة تدل على أنها بنيت على الطراز الرومانى البازيليكى بأضلاعها الثلاثة النصف دائرية والبارزة للخارج ، ودلت أرضيتها أنها كانت مكسوّة بالفسيفساء البديعة ونقوش هندسية مربعة ومعيّنة ، وصور لمقدمى الهبات للكنيسة ، وكلمات منقوشة وطيور وغزلان وطواويس وزهور ونباتات الكرمة ، كلها بدت مطموسة بفعل فاعل ، هو الخليفة الأموى يزيد الثانى الذى أمر بتحطيم التماثيل وطمس الصور .

كما نجد معالم آثار إسلامية من القرنين السابع والثامن الميلاديين ، تدل على ازدهار جرش ثانية ، واشتهرت بأفران وقمائن لصناعة الأوانى النموذجية من الفخار ، وأكسدتها بأحد لونين البنى أو الأحمر ، وتحتوى قبة القمينة - التى لا يزيد ارتفاعها عن مترين ونصف المتر ، على صندوق حرارى خارجى وحجرة داخلية تمرّ منها الحرارة ، ولازالت هناك غرفة داخلية إلى الأعلى تستند على منصّة فريدة فى نوعها بالشرق ، فهى مصنوعة من حجر البازلت والطوب المحشو بقطع حجارة صغيرة ولازال بجرش آثار خمسة عشر كنيسة ، وقبور محفورة فى باطن الأرض عليها نقوش وأشكال واضحة كما وجدت آثار من البيوت المنتمية للعصر الأموى بتقسيماتها ذات العشر غرف على جانبى فناء غير منتظم . بقى لك أيها الزائر أن تسأل ما أصل اسم جرش هذا ؟ .. هل هو عربى ؟ إن اسمها جيراسا وعرّب إلى جرش ، ومع ذلك فقد كان اسمها منذ نشأتها هو أنتيوك .

* **ديلمون** .. اسم غريب عليك يا عزيزى الزائر ، فكيف تتجه إليها وأنت لم تسمع عنها ؟ أين هى ؟ إن البحث عنها يحتاج منك كسائح باحث أن تثابر قليلاً لمعرفتها . لقد ظل السومريّون والآشوريون والبابليون طوال حوالى ألفين من السنين (بين الألف الثالث والأول قبل الميلاد) يكتبون بكثرة عن بلاد غنية مزدهرة أطلقوا عليها هذا الاسم (ديلمون) ، وأنها بلاد الحياة الأبدية ، وأنها

موجودة بعيدًا فى الجنوب ، وراء الماء المرّ !! (الخليج العربى) عند مكان شروق الشمس .

هل حدّدت المكان بالتقريب ، وبالتالى نضع أقدامنا على أطرافه ؟ لنحاول تقريبه إلى الأذهان .. إنها مرتبطة بقصة الطوفان وأسطورة جلجاميش ، الذى بحث عن أرض ديلمون قاصدًا البحث عن الخلود ، فالنصوص الآشورية تتحدث عن هذه الأرض بصورة حسيّة كبلاد فعلية لها وجود فى عالم الواقع ، أما الأساطير السومرية فتجعل من ديلمون مسكنًا أبديًا لجدّ البشر الخالد الأول .

ولأختصر لك الطريق ، مدخرًا جهدك لمتعة المشاهدة ، إذ أمامك خط بحرى واصل ما بين أرض السند فى الهند وما بين النهرين مارًّا بعُمان وجزر البحرين البالغة خمسة وعشرين جزيرة جنوب الخليج العربى ، ذلك الخط العامر بمنارات حضارية منذ ما قبل التاريخ الميلادى بزهاء ثلاثمائة قرن .

والحفريات واللقيات الأثرية ، تكشف عن تشابه فى الأحداث وتوازى خطوط المسار فى هذا الحيّز المؤكد ، فنوع النحاس المستخرج من منجم قديم فى عمان هو نفسه الذى عثر على أوانٍ منه فيما بين النهرين ، ووجود خمسة عشر ختمًا مربعة من الحجر الصابونى تحمل صورة ثور صناعة هندية فى عُمان ، والبحرين ، وما بين النهرين ، لكن وجود أربعة أختام أسطوانية الصنع من البحرين فى السند بنفس

الرسم يدل على الصلة الوثيقة بين مركزى الحضارتين . وإضافة إلى ذلك أن طبيعة الأرض فى أكبر جزيرة من جزر البحرين تتميز بالمياه العذبة والأشجار الكثيفة والتلال الأثرية التى بلغت المائة ، وعمرت بالحفريات المتقدمة ليدلّ دلالة قاطعة بأن البحرين شاركت مشاركة فعالة فى حضارتى الهند وما بين الرافدين ، وقد تم اكتشاف أطلال معبد قديم ضخم قرب بلدة بربر هناك ، وهو شبيه بالمعابد السومرية فى تلك الفترة ، وظهرت أنقاض مدينة أثرية فى نطاق الحصن البرتغالى على الساحل الشمالى للجزيرة ، وأثبتت البحوث أنها مدينة تتوزع آثارها أفقيًا فى خمس طبقات حضارية ، ففيها قطع فخارية وخزفية بنوع من التزيينات والنقوش والزخارف فريدة فى نوعها ، كما أكد وجود رأس ثور كبير من النحاس فى أنقاض المعبد تشابها مع رءوس من هذا النوع فى مدافن ملوك الهند ، وكذلك خاتمان ذهبيان وحطام تمثالين من عاج الفيل ، ومدائح دينية سومرية .

وعلى الرغم من كل هذه الشواهد ، فلازالت الحيرة تملأ نفوس العلماء هل البحرين أم السند هى دولة ديلمون الأسطورية التى نجت من الطوفان ، ولازال الأمر يتطلب منك كسائح باحث أن تستوثق بنفسك .

فى الهند .. أو جزيرة الكمثرى (جامبودفينا) ، تلك القارة المنعزلة عن قارة آسيا فى الجنوب ، ويطلق عليها اسم القارة مجازًا .. نظرًا

لأتساعها وكثافة سكانها ، وتعدد مراكز الحضارة فيها ، ومن الصعب في هذا الحيّز الضيق سردها ، وإنما بالإمكان انتقاء أهمها من حيث كثرة آثارها وقدمها ، ففى الجنوب الغربى ، أرض السند الذى سبق الإشارة إليها ، وبها بومباى ميناؤها الكبير ، كما توجد فى الشمال دلهى العاصمة السياسية ، وجنوبها الشرقى بقليل توجد بنارس مركز الديانة الهندوسية .

وتتناثر فى سائر غاباتها أديرة ، تسمى أشرام للعبادة والتفكير المجرد ، ومن أشهر أساتذة هذا التفكير عالمهم المستنير (بوذا) صاحب الديانة التى يتبعها أكبر عدد من الأتباع فى العالم ، لذلك تربعت تماثيل بوذا فى سائر معابدها .

ومن أشهر آثار القارة الهندية غير المعابد فى الغابات ، معبد تانجورا الذى كانت تعلوه كتلة من الجرانيت تزن ما يقرب من ثمانين طنًّا ، وفى داخل المعبد تمثال ثور اقتطع فى كتلة من الجرانيت الأسود ، يبلغ طوله اثنتا عشرة قدمًا وحجمه ست عشرة قدما .

وفى منطقة أجـونتا تسعة وعشرون كهفًا ، تزيّنها تماثيـل الديانات الثلاثة البوذية والهندوكية والسيخية ، أكبرها يبلغ ارتفاعه ٩٥ قدمًا وعرضه اثنا عشر مترًا ونصف المتر .

كما يلفت النظر فى الجنوب تمثال عربات الحرب السبع ، نحتت كل عربة من كتلة من الصخر يبلغ اتساعها عشرة أقدام مربعة ،

وارتفاعها ثمانى عشرة قدما ، وكان تشييدها تكريمًا لرجل الدين المقدس دراوابادى ، وأقام المثالون عربة أخرى أكبر على مساحة ٤٨ قدمًا ولكن تكريمًا هذه المرة لزعيم دينى آخر هو يود شيثيرا . وإنك تحس مهارة المثالين فى قدرتهم على حفر هذه التماثيل فى صخر الجرانيت .

وهناك آثار إسلامية منذ العهدين العربى والمغولى ، على رأسها جامع اللؤلؤة بدلهى الذى يتسع لمائتى ألف مُصَلٍّ . ومن أجمل الآثار العالمية قصر تاج محلّ الذى شيده شاه جيهان تخليدًا لذكرى زوجته الملكة ، التى كان يحبها حبًّا شديدًا ، وكلا الاثنين قد كسيا بالرخام الأبيض .

وفى جبل من الجرانيت الأسود بالقرب من بلدة اللورا ، شق بناء معبد كابلاسا بفناء طوله ثلاثة وثمانون مترًا وعرضه ستة وأربعون مترًا ، حيث أقيم الهيكل بارتفاع ثملة وعشرين مترا ، وبلغ طوله تسعة وأربعين مترًا ، وللهيكل شرفة ، كما أن بداخله غرفة فسيحة تقوم فى وسطها غرفة صغيرة هى مكان العبادة الداخلى ، وتحيط بهذا كله من الداخل والخارج إطارات من النقوش تتنوع بين التماثيل ضخمة وأخرى صغيرة دقيقة .

وإن دل هذا كله على شىء فإنما يدل على تنافس حضارات الغزاة فى إثبات قدرتهم الفكرية والعضلية أيضًا على تشييد هذه المنشئات الضخمة ، فضلاً عن لمسات الفن المغولى والفارسى فى تزيين

جدرانها ، وإذا نسينا فلا ننسى عرش الطاووس الذى كان مضرب المثل على تكثيف المجوهرات ودقة صناعته الهندية ، والتى نقله الغزاة الفرس إلى كسرى ليجلس عليه .

فى اليابان .. من أقدم النظم الإمبراطورية فى العالم ، ومن ثم فهى تمتلك تاريخًا عريقًا ، وآثارًا موغلة فى القدم للمعابد ، ومع ذلك فلم تعد هذه الآثار ممثلة لثروتها الحاضرة ، وإنما ما لفت الأنظار إليها هى قفزتها المعجزة ، لا لمسايرة ركب الحضارة التقنية الحديثة فحسب ، بل للمنافسة على الصدارة فى هذا المضمار ، لذلك أصبحت قبلة سياح العالم ورجال الأعمال لمعرفة سرّ هذه الطفرة ، ومشاهدة منجزاتها ، فبرغم صغر حجمها ، وكثرة سكانها ، ونقص مواردها الطبيعية ، وهزيمتها الساحقة فى الحرب العالمية الثانية ، وضياع امبراطوريتها وأسواقها . بالرغم من ذلك كله ، تحتل الآن مقدمة الدول المتقدمة ، وتعدّل من تشكيل الأرض لتواجه حاجة مجتمع صناعى وحضرى حديث ، فى نظم النقل ، ومشروعًا للإسكان ، واستخدام الآلات والكمبيوتر والطاقات المخلّقة المستحدثة فى جميع المرافق التى تقام بسرعة مذهلة من الخرسانة المسلحة والصلب والزجاج والألومنيوم .

وأول ما يلفت النظر فى طوكيو برج الإرسال التليفزيونى الذى يرتفع عن برج إيفل فى باريس بعدة أقدام . والنباتات الشاهقة التى

تحتوى كل واحدة منها مستلزمات الحياة الكاملة ، كاكتفاء ذاتى ورخاء شامل ، من مخازن وأسواق خضر وفواكه ، ومحلات بيع أدوات كهربائية وتصوير ، ومقاهٍ ومسارح ومطاعم ومراكز لهو وكباريهات ، وصالات الباشنكو العريقة التى تشمل ماكينات البلى اليابانية الطراز . وتجدر ملاحظة أن اليابان يتمتع شعبها بأعلى نسبة تعليم فى العالم ، فبلغت ٩٨٪ من الشعب متعلمين . كما وصلت عمليات استصلاح أراضيها القليلة للزراعة ، واللجوء إلى الزراعة الكثيفة وتسوية الأراضى ، وتدريج المرتفعات إلى مسطحات تستوعب كل أنواع المحاصل الملائمة لمناخها ، حتى بلغ الإنتاج الزراعى من وحدة الأرض أعلى نسبة إنتاج فى آسيا باستخدام التكنولوجيا الحديثة والتألية ، وصارت تسدّ ٨٥٪ من احتياجاتها الغذائية .

ومن المشروعات الشائعة التى صارت جديرة بالمشاهدة والاقتداء مصائد الأسماك ، وبناء أسطول صيد السمك ، فى أعالى البحار ، وسفن أبحاث للعثور على مناطق جديدة للصيد بعيدًا عن المياه الإقليمية للبلاد مثل الصين وأندونيسيا وأمريكا اللاتينية ، وإقامة مصانع عائمة لمعالجة الأسماك ، ومراكز للتدريب الفنى ، كما تواصل عقد اتفاقيات مع الدول ذات السواحل للمشاركة فى عمليات الصيد بها .

ومصانع اليابان الضخمة الأشبه بمدن قائمة بذاتها ، تستحق من السائحين ، أن يتخلصوا من ربقة الماضى قليلاً وآثاره ، متطلعين إلى المستقبل المنتظر فى العالم ، والذى تحققت بوادر معجزته فى بلاد

الشمس المشرقة .. فمصنع ياواتا من أكبر مصانع العالم للصلب وأفرانه ، ممتدا على الخليج لطوكيو وشمال كيوشو ، ومصانع السفن والسيارات العملاقة .

ومن معجزة اليابان اليوم تسييرها أسرع قطارات فى العالم ، تسير على وسائد هوائية .. تغلبًا على وعورة الأرض واختصارًا للوقت وربطًا للجزر ببعضها .. وخاصة الجزر الكبرى بها المتمثلة فى هنشو وشيكوكو وكيوشو وهوكايدو .

فى أسبانيا (أشبيلية) .. أظن أنه ليس من المعقول تجاهل أول دولة فى مجال النشاط السياحى العالمى ، أعنى أسبانيا ، التى صار دخلها فيها يمثل أهم عناصر ميزانها الاقتصادى ، واستخدمت كل صغيرة وكبيرة من آثارها وعادات شعبها وتقاليده ، وكذلك أماكن اللهو بها ، ومصارعة الثيران التى لا مثيل لها .

ويبدو أن ترحيب أهل أسبانيا بالسياح كضيوف لهم ، نابع من اتباعهم بعض العادات العربية القديمة .. فالأسبانى عندما يحييك ، تزوره فى بيته للمرة الأولى ، يقول لك أنت فى بيتك Estensu Casa , أو عندما تبدى إعجابك بما فى حوزة صديقك ، ردّ عليك بالقول إنها تحت تصرفك Est a su Disposicion , وهى عبارات المجاملة المهذبة التى شاع استخدامها منذ ألف سنة . كذلك صياح

الأسبانى معبرًا عن إعجابه براقصة أو مغنية بقـوله الله الله . Oli , Oli
أما أشبيلية ، فهى حاضرة إقليم الأندلس فى الجنوب وإحدى مدن أسبانيا الكبرى ، ولا زالت المسحة العربية غالبة عليها وباقية ، فتشتهر منازلها بصحون هى بمثابة غرف جلوس جذابة فى الهواء الطلق ، وبإمكانك رؤية هذه الصحون الجميلة من خلال شبكات البوابات الحديدية على الشارع ، وقد رصفت برخام وردى اللون ، وجدران مكسوّة بقيشانى ذى زرقة داكنة ، وتتوسطها نافورات تحيط بها قدور الزهر والياسمين ، كذلك ترى برج الأجراس فى الكاتدرائية ، الذى كان مئذنة مسجد قبل إحلال الكنيسة محله ، وما قصر الأسرة المالكة أيضًا إلا قصرًا عربيًّا قديما أدخلت عليه بعض الإصلاحات والتعديلات ، وتحدد الاهتمام بحدائق القصر الممتلئة بأشجار الشرو والورود . وتزيِّنه النافورات والبحيرات الصناعية ، كما يحتوى على استراحة صيفية ذات طراز عربى فريد .

ومن أهم المناسبات الموسمية التى يحجز السياح قبلها بشهور لمشاهدتها ، أسبوع الآلام ، فمنذ يوم الثلاثاء السابق على الجمعة الحزينة تمتلئ الشوارع ليلاً ونهارًا بمواكب النوادى الدينية يضم كل موكب سائر أربعين رجلاً بجوار منصّتهم التى تعلوها تماثيل دينية للعذراء (عذراء الأمل) تلك القديسة المحببة إلى الفقراء ومصارعى الثيران ، وتستغرق مسيرة الموكب فى شارع الثعابين

الضيق عشر ساعات وسط الزحام ، وهناك أيضًا موكب عذراء الملوك التى يحملها الناس من الكاتدرائية فى شوارع المدينة ، وتدق نواقيس برج ، أو مئذنة الخيرالدا ، فتكسى واجهات المنازل بالحرائر وتزين بالزهر ، وهى أقدم عذارى أشبيلية ، وتروى عنها أساطير شجاعتها فى الدفاع عن المدينة ، ومن الاحتفالات أيضًا رحلات نادرة الأضرحة المشهورة فى الريف ، وتسمى رحلات الحج فى مواكب تبدأ فى الصيف بعيد العنصرة ، وتضم أعدادًا كبيرة من الناس وكذلك الغجر الذى يقطنون مغارات خارج أشبيلية ، ويلبسون ملابس مبهرة والفتيات أيضا يتزينّ بأحزمة جميلة ، وعربات تنضم إلى الموكب فى الطريق ، وجياد براكبيها من الفرسان ، وكلها تدخل البهجة والسرور على الجميع .

ومن مراكز السياحة الأثرية الأخرى غرناطة وقصر الحمراء ، الذى كان للأديب السياحى الأمريكى وشنطن أرفنج فضل جذب أنظار العالم إليه بمجموعته القصصية التى كتبها من داخل القصر ، فلفت نظر الحكومة نفسها للعناية بالقصر وترميمه وتجديده . ومن المراكز الأخرى طليطلة وقرطبة ومدريد وغيرها ، ولكل منها سحرها الخاص بها ، وتجاوزت فيها الآثار الرومانية والإسلامية والإغريقية ، وبعضها منقول إلى متحف برادو الذى يضاهى متحف اللوفر بباريس ، ولا زالت مدريد تفخر بمكتبة الاسكوريال العربية الأصل .

فهرس

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٨٤٩٠
الترقيم الدولى 977 - 02 - 4226 - 8	ISBN

١ / ٩٣ / ٣٨

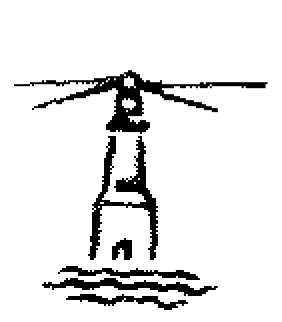
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



ربما يكون الأدب السياحى جديدًا على أدبنا العربى ، إذ لم نسمع من قبل عن أديب تخصص فى هذا النوع من الكتابة .. مع أنه أدب شاعت فنونه فى الآداب غير العربية. فما الذى جعل أدبنا يخلو من السياحة ؟ .

كتاب جديد فى موضوعه بقلم كاتب - يُجيد التعبير بأسلوب سهل ﻻ ،خلو من العمق الذى يليق بمادة ب الذى لا غنى عنه .





دار المعارف